تقي الدين الهلالي
(١٣١١هـ/١٨٩٣م -١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)

د. خالد النجار

إنه شيخ في علمه، وشيخ في فكره ونضاله، وشيخ في مجتمعه، ثُمَّ شيخ في عمره الذي امتدّ به، ونرجو له بعد ذلك رضا الله ومغفرته.

هو العلامة المحدث واللغوي الشهير والأديب البارع والشاعر الفحل والرحالة المغربي الرائد الشيخ السلفي الدكتور محمد التقي المعروف بـ «محمد تقي الدين»، كنيته (أبو شكيب) حيث سمى أول ولد له على اسم صديقه الأمير شكيب أرسلان.

يقول فضيلته في شأن تسميته: إن والدي رأى في المنام قائلاً يقول له: سيولد لك غلام فسمه محمد التقي، فكان ذلك.

ولكن أهل الهند سموني تقي الدين، فاشتهر اسمي بمحمد تقي الدين، وكنيتي أبو شكيب لأني سميت أول مولود لي شكيباً على اسم صديقي الأمير شكيب أرسلان رحمه الله، وليس لي لقب، واسم والدي عبد القادر الهلالي نسبة إلى هلال وهو الجد الحادي عشر، ونسبتنا إلى الحسين بن علي، ذكر ذلك غير واحد من المؤلفين في أنساب أهل البيت من المغاربة، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم بلادنا سجلماسة سنة (١٣١١هـ). أهـ

ولد الشيخ سنة (١٣١١هـ) هـ بقرية «الفرخ»، وتسمى أيضا بـ «الفيضة القديمة» على بضعة أميال من الريصاني، وهي من بوادي مدينة سجلماسة المعروفة اليوم بتافيلالت الواقعة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

جنوبا بالمملكة المغربية. وقد ترعرع في أسرة علم وفقه، فقد كان والده و جده من فقهاء تلك البلاد.

والشيخ الهلالي، حسنيٌّ من نسل علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–، ويخطئ من يعتبره من بني هلال، الذين نزحوا إلى الشمال الأفريقي، من مصر ودمروا القيروان عام (٤٤٩هـ) بعد أن أباحها لهم العبيدون (الفاطميون)، كما ذكر ذلك ابن عِذارِي في كتابه البيان المغرب (ص:٢٨٨)

نشأته العلمية

قرأ القرآن على والده وحفظه وهو ابن اثنتي عشر سنة ثم جوده على الشيخ المقرئ أحمد بن صالح، ثم لازم الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي، وكان من أفضل العلماء في الزهد والتقوى ومكارم الأخلاق، فبدأ بحفظ مختصر خليل وقرأ عليه علوم اللغة العربية والفقه المالكي إلى أن أصبح الشيخ ينيبه عنه في غيابه.

يقول الشيخ الهلالي عن تلك الفترة: «قرأت القرآن على والدي وجدي فحفظته وأنا ابن اثنتي عشرة سنة. وكان والدي ينوي أن يبعثني إلى مجود الوقت الشيخ أحمد بن الصالح لأقرأ عليه ختمة بالتجويد، فعاجلته المنية، فقامت بذلك أمي، فقرأت على الشيخ المذكور القرآن من أوله إلى آخره بالتجويد، فكنت أكتب كل يوم ربع جزء في لوح من حفظي، وأدفعه إليه يصححه على حسب رسم المصحف العثماني، ثم يقرؤه هو وأنا أسمع، وبعد ذلك أقرؤه أنا وهو يسمع، وإن أخطأت يصحح لي خطأي.

ثم بقيت فترة بدون تعلم إلى أن سافرت إلى الجزائر لطلب الرزق سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف. فرأيت النبي –صلى الله عليه وسلم– في المنام رؤيا كأنها يقظة، وكنت قد أخذت الطريقة التيجانية، ولم يكن يخطر ببالي طلب العلم بل كنت أسعى في الحصول على علم الباطن بالاجتهاد في العبادة على طريقة المتصوفة، فلما رأيت النبي –صلى الله عليه وسلم– في المنام وكان طويلاً أبيض اللحية، وذلك يدل على نقص في الرائي، وضعت يدي في يده، وأظن أني قبلتها، وقلت: يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي إلى الله. فقال لي وهو منقبض: اقرأ العلم. فقلت: العلم الظاهر أم العلم الباطن؟ فقال لي: العلم الظاهر. فقلت: في بلاد المسلمين أم في بلاد النصارى؟ وكان علماء بلدنا يكفرون كل من يسافر إلى الجزائر،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لأن الفرنسيين كانوا يحكمونها، فقال لي: البلاد كلها لله. فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يختم لي بالإيمان. فرفع إصبعه المسبحة إلى السماء، وقال لي: عند الله.

فقصدت الشيخ محمد سيدي بن حبيب الله الشنقيطي -رحمه الله- وقصصت عليه رؤياي، واستشرته في الرحلة في طلب العلم إلى أحد مراكزه في المغرب وتونس والجزائر. وكانت له مدرسة يعلم فيها الطلبة مبادئ العلم ويكسوهم ويطعمهم على طريقة العلماء في شنقيط. فمن تواضعه وكرمه وحلمه قال لي: امكث عندنا حتى تحصل هذا الذي عندنا من مبادئ العلم، وحينئذ تسافر إلى إحدى المدارس العليا.

وكانت استشارتي له في الرحيل إلى إحدى المدارس الكبرى، وعدم قناعتي بمدرسته، من الجهل وسوء الأدب، فبقيت معه في البادية، ومدرسته خيمة بقرب خيمته التي يسكن فيها بأهله، بقيت على ذلك سنتين ثم انتقل بمدرسته إلى مدينته المشرية فبقيت معه خمس سنين أخرى، ولم أر مثله في الزهد والتقوى ومكارم الأخلاق، إلا شيخاً آخر في الهند سأذكره بعد، ومناقبه كثيرة لا يتسع لها المقام، وهو من قبيلة (تندغ) مشهورة في قبائل شنقيط، توفي بالمشرية من عمالة وهران من الجزائر حوالي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف». أهـ

وبعد وفاة شيخه توجه لطلب العلم على علماء وجدة وفاس آنذاك. وكان من شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم الشيخ الفاطمي الشراوي، والشيخ العالم المحقق غرة زمانه «محمد العربي العلوي» الذي قال فيه الشيخ الهلالي: «أستاذي الذي أنقذني الله على يده من طريقة التيجانية والشرك وعبادة القبور. وجرت بيني وبينه مناظرة ذكرتها بالتفصيل في كتاب: فكاك الأسير العاني المكبول بالكبل التيجاني»، والشيخ أحمد سوكيرج... إلى أن حصل على شهادة من جامع القرويين.

ثم سافر إلى القاهرة ليبحث عن سنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، فالتقى ببعض المشايخ أمثال الشيخ عبد الظاهر أبو السمح والشيخ رشيد رضا والشيخ محمد الرمالي وغيرهم، كما حضر دروس القسم العالي بالأزهر، ومكث بمصر نحو سنة واحدة يدعو إلى عقيدة السلف ويحارب الشرك والإلحاد.

يقول الشيخ الهلالي: «وحضرت دروس القسم العالي من الأزهر، وقال لي أحد كبار أساتذة الأزهر، وهو الشيخ الزنكلوني، قال: لا تطلب علم الحديث في مصر، فنحن معشر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كبار علماء الأزهر لا أحد منا يحفظ عشرة أحاديث ولا نعرف صحيحاً من ضعيف، وإنما نقرأ سواداً في بياض مقلدين للمؤلفين.

ورأيت كتاب (عون المعبود شرح سنن أبي داود) ألف وطبع في الهند، فظهر لي أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند، فعزمت على السفر إلى الهند، وفي أثناء السنة التي أقمتها في مصر خرجت إلى الصعيد بقصد تحصيل شيء من المساعدة المالية لأستعين بها على التوجه للحج، وكان التيجانيون في الجزائر قد بعثوا إليّ بحوالة مالية ظناً منهم أنني لا أزال على عقيدتهم. فكتبت إليهم كتاباً مطولاً شكرتهم فيه على إحسانهم السابق واللاحق، وأقمت لهم البراهين على أن الطريقة التيجانية لا يمكن أن تجتمع في قلب إنسان مع ما جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم–، فغضبوا غضباً شديداً.

فأشار علي بعض الأصدقاء بالخروج إلى الصعيد للغرض المذكور، فلما وصلت إلى مدينة ملاوي بمديرية أسيوط دعاني إلى قرية تسمى الريرمون، رئيس السلفيين الشيخ إسماعيل الصيفي –رحمة الله عليه– وكان عدد السلفيين قليلاً جداً. وكان شيخ البلد والوجهاء والأعيان وسائر أهل القرية يسمونهم (وهابية)، ويعادونهم. فشرعت في إلقاء دروس الوعظ في بيت الشيخ إسماعيل، ومسجد السلفيين، فاستجاب إلى دعوتي شيخ البلد يوسف، وتبعه أهل البلد كلهم، ولم يبق على البدعة والشرك إلا شيخ الطريقة والعمدة (المرفوت) أي المعزول وخدامهما.

ولما رأيت الناس قد أقبلوا على التمسك بالسنة إقبالاً عظيماً تركت الغرض الذي من أجله توجهت إلى الصعيد وأظهرت الغنى لعلمي أن إظهار الحاجة إلى ما في أيدي الناس يفسد الدعوة أو ينقصها. وبقيت عندهم ثلاثة أشهر حتى قرب وقت الحج، ولم يتجرأ أحد منهم أن يقدم لي شيئاً من المال إلا الشيخ يوسف، فإنه ألح كثيراً في إهداء شيء من الثياب، فقبلته.

ولما رجعت إلى القاهرة بعثوا إلي حوالة قدرها ثلاثة عشر جنيهاً، فسافرت بها إلى الحج» أهـ

وبعد أن حج توجه إلى الهند لينال بغيته من علم الحديث فالتقى علماء أجلاء هناك فأفاد واستفاد؛ ومن أجل العلماء الذين التقى بهم هناك المحدث العلامة الشيخ عبد الرحمن

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بن عبد الرحيم المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» وأخذ عنه من علم الحديث وأجازه، وقد قرّظه بقصيدة يُهيب فيها بطلاب العلم إلى التمسك بالحديث والاستفادة من الشرح المذكور، وقد طبعت تلك القصيدة في الجزء الرابع من الطبعة الهندية؛ كما أقام عند الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل الهند آنذاك وقرأ عليه أطرافا من الكتب الستة وأجازه أيضا.

ومن الهند توجه إلى «الزبير» بالبصرة في العراق، حيث التقى العالم الموريتاني السلفي المحقق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مؤسس مدرسة النجاة الأهلية بالزبير، وهو غير العلامة المفسر صاحب «أضواء البيان» فتزوج ابنته واستفاد من علمه، ومكث بالعراق نحو ثلاث سنين ثم سافر إلى السعودية مرورا بمصر حيث أعطاه السيد محمد رشيد رضا توصية وتعريفاً إلى الملك عبد العزيز آل سعود قال فيها: (إن محمدا تقي الدين الهلالي المغربي أفضل من جاءكم من علماء الآفاق، فأرجو أن تستفيدوا من علمه)، فبقي في ضيافة الملك عبد العزيز بضعة أشهر إلى أن عين مراقبا للتدريس في المسجد النبوي، وبقي بالمدينة سنتين ثم نقل إلى المسجد الحرام والمعهد العلمي السعودي بمكة وأقام بها سنة واحدة.

وبعدها جاءته رسائل من إندونيسيا ومن الهند تطلبه للتدريس بمدارسها، فرجح قبول دعوة الشيخ سليمان الندوي رجاء أن يحصل على دراسة جامعية في الهند، وصار رئيس أساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء في مدينة لكنهو بالهند حيث بقي ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة الإنجليزية ولم تتيسر له الدراسة الجامعية بها. وأصدر باقتراح من الشيخ سليمان الندوي وبمساعدة تلميذه الطالب مسعود عالم الندوي مجلة «الضياء». ثم عاد إلى الزبير بالبصرة وأقام بها ثلاث سنين معلما بمدرسة «النجاة الأهلية» المذكورة آنفا.

وبعد ذلك سافر إلى جنيف بسويسرا وأقام عند صديقه، أمير البيان، شكيب أرسلان، وكان يريد الدراسة في إحدى جامعات بريطانيا فلم يتيسر له ذلك، فكتب الأمير شكيب رسالة إلى أحد أصدقائه بوزارة الخارجية الألمانية يقول فيها: (عندي شاب مغربي أديب ما دخل ألمانيا مثله، وهو يريد أن يدرس في إحدى الجامعات، فعسى أن تجدوا له مكانا لتدريس الأدب العربي براتب يستعين به على الدراسة)، وسرعان ما جاء الجواب بالقبول، فسافر الشيخ الهلالي إلى ألمانيا وعين محاضراً في جامعة «بون» وشرع يتعلم اللغة الألمانية،

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

حيث حصل على دبلومها بعد عام، ثم صار طالباً بالجامعة مع كونه محاضراً فيها، وفي تلك الفترة ترجم الكثير من الألمانية وإليها، وبعد ثلاث سنوات في بون انتقل إلى جامعة «برلين» طالباً ومحاضراً ومشرفاً على الإذاعة العربية، وفي سنة (١٩٤٠م) قدم رسالة الدكتوراه، حيث فند فيها مزاعم المستشرقين أمثال: مارتن هارثمن، وكارل بروكلمان، وكان موضوع رسالة الدكتوراه «ترجمة مقدمة كتاب الجماهر من الجواهر مع تعليقات عليها»، وكان مجلس الامتحان والمناقشة من عشرة من العلماء، وقد وافقوا بالإجماع على منحه شهادة الدكتوراه في الأدب العربي.

وفي سنة (١٩٤٧م) سافر إلى العراق وقام بالتدريس في كلية «الملكة عالية» ببغداد إلى أن قام الانقلاب العسكري في العراق فغادرها إلى المغرب سنة (١٩٥٩م). وشرع أثناء إقامته بالمغرب –موطنه الأصلي– في الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشرك واتباع نهج خير القرون.

وفي هذه السنة (١٩٥٩م) عين مدرسا بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بفرعها بفاس، وفي سنة (١٩٦٨م) تلقى دعوة من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة آنذاك للعمل أستاذاً بالجامعة منتدباً من المغرب فقبل الشيخ الهلالي وبقي يعمل بها إلى سنة (١٩٧٤م) حيث ترك الجامعة وعاد إلى مدينة مكناس بالمغرب للتفرغ للدعوة إلى الله، فصار يلقي الدروس بالمساجد ويجول أنحاء المغرب ينشر دعوة السلف الصالح. وكان من المواظبين على الكتابة في مجلة «الفتح» لمحب الدين الخطيب، ومجلة «المنار» لمحمد رشيد رضا رحم الله الجميع.

هداية الشيخ تقي الدين الهلالي من الطريقة التيجانية

شيخ التوحيد في بلاد المغرب والذي كان صوفيا (تيجانيا) فأكرمه الله بدعوة التوحيد، يقول عن سبب خروجه من الطريقة التيجانية: «لقد كنت في غمرة عظيمة وضلال مبين، وكنت أرى خروجي من الطريقة التيجانية كالخروج من الاسلام ولم يكن يخطر لي ببال أن أتزحزح عنها قيد شعرة، وجرت مناظرة حول ادعاء الشيخ التيجاني في أنه رأي النبي يقظة، وقد ثبت بطلان ذلك» ويمكن الرجوع للمناظرة بكاملها في كتاب (الفكر الصوفي ص

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

٤٧٤) وكذلك يذكر أنه اجتمع بالشيخ عبد العزيز بن إدريس وأوضح له بطلان الطريقة التيجانية.

وأما في العصر الحديث فإن التصوف على الرغم من انتشاره في غفلة من المسلمين عن علوم الكتاب والسنة، فإن الله سبحانه وتعالى قيض للمسلمين الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الذي كان لدعوته المباركة في الجزيرة العربية الفضل في إيقاظ الأمة من سباتها العميق، واطلاعها على حقيقة التصوف الضال فانتشرت دعوة التوحيد شرقاً وغرباً، وقام الرجال المخلصون بملاحقة فلول التصوف في كل صقع من أصقاع الأرض حتى انزاحت الغمة أو كادت بفضل الله ورحمته بعد أن كان الظلام والشر قد عم الأرض كلها إلا القليل القليل من أهل الدين الحق والتوحيد.

شهادة الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي:

«الحمد لله الذي أرسل خاتم النبيين وإمام المرسلين، محمداً -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين بشيراً لمن آمن به، واهتدى بهديه، بالفوز المبين ونذيراً لمن كفر به وخالف سنته بالعذاب المهين، وصل اللهم على محمد وأزواجه وذرياته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذرياته كما باركت على إبراهيم، صلاة تشمل آله ومن تمسك بسنته إلى يوم الدين.

فيقول أفقر العباد إلى الغني الكبير المتعال، محمد تقي الدين بن عبد القادر الحسيني الهلالي غفر الله ذنبه وستر عيبه:

نشأت في بلاد سجلمانة، وحفظت القرآن وأنا ابن اثنتي عشرة سنة، ورأيت أهل بلادنا مولعين بطرائق المتصوفة لا تكاد تجد واحداً منهم لا عالماً ولا جاهلاً إلا وقد انخرط في سلك إحدى الطرق، وتعلق بشيخها تعلق الهائم الوامق، يستغيث به في الشدائد ويستنجد به في المصائب، ويلهج دائماً بشكره والثناء عليه فإن وجد نعمة شكره عليها، وإن أصابته مصيبة اتهم نفسه بالتقصير في محبة شيخه والتمسك بطريقته، ولا يخطر بباله أن شيخه يعجز عن شيء في السماوات ولا في الأرض فهو على كل شيء قدير، وسمعت الناس يقولون: من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه. وينشدون قول ابن عاشور في أرجوزته التي نظمها في عقيدة الأشعرية، وفي فروع المالكية، وفي مبادئ التصوف:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يصحب شيخاً عارف ** المسالك يقيه في طريقه المهالك

يذكره الله إذا رآه ** ويوصل العبد إلى مولاه

ورأيت الطرق المنتشرة في بلادنا قسمين:

١- قسم ينتمي إليه العلماء وعلية القوم.

٢- وقسم ينتمي إليه السوقة وعامة الناس.

فمالت نفسي إلى القسم الأول، وسمعت أبي وهو من علماء بلدنا مراراً يقول: لولا أن الطريقة التجانية تمنع صاحبها من زيارة قبور الأولياء والاستمداد منهم وطلب الحاجات إلا قبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإلا قبر الشيخ التجاني، وقبور من ينتمي إلى طريقته من الأولياء، قال أبي: لولا ذلك لأخذت ورد الطريقة التجانية، لأني لا أستطيع أن أترك زيارة جدنا عبد القادر بن هلال، وجدنا كان مشهوراً بالصلاح وله قبر يزار وهو معدود من جملة الأولياء في ناحية الغرفة من القسم الشرقي الجنوبي في بلاد المغرب.

والطريقة التجانية، والدرقاوية، والكتانية، وإن كان أهلها في بلادنا قليلاً، تؤلف القسم الأول، فاشتاقت نفسي إلى أخذ ورد الطريقة التجانية وأنا قد ناهزت البلوغ فذهبت إلى المقدم وقلت له: يا سيدي أريد منك أن تعطيني ورد الطريقة التجانية، ففرح كثيراً، وقال لي: تأخذ الورد على صغر سنك؟ قلت: نعم، فقال: بخ بخ أفلحت ونجحت، فأعطاني الورد وهو: ذكر لا إله إلا الله مائة مرة، والاستغفار مائة مرة، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- بأي صيغة مائة مرة، لكن صيغة الفاتح لما أغلق هي أفضل الصيغ، وسيأتي إن شاء الله ذكر فضلها -الفضل المزعوم عندهم- في هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه، وأعطاني كذلك الوظيفة وهي أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم ثلاثين مرة، وصلاة الفاتح لما أغلق خمسين مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، وجوهره الكمال وهي: «اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية.. الخ»، وسيأتي ذكر ألفاظها اثنتي عشر مرة، وهذه الصلاة لا تذكر إلا بطهارة مائية، فمن كان فرضه التيمم فعليه أن يذكر بدلها صلاة الفاتح عشرين مرة، قال: وإنما اشترطت الطهارة المائية على ذاكرها لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدين يحضرون مجلس كل من يذكرها ولا يزالون معه ما دام يذكرها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويجب ذكر الورد مرة في الصباح ومرة في المساء بطهارة تامة كما يشترط في الصلاة، ويكون الذاكر جالساً كجلسة التشهد على الأفضل مغمضاً عينيه مستحضراً صورة الشيخ أحمد التجاني وهو رجل أبيض مشرب بحمرة ذو لحية بيضاء، ويتصور في قلبه أن عموداً من النور يخرج من قلب الشيخ ويدخل في قلب المريد.

أما الوظيفة فيجب أن تذكر جماعة بصوت واحد، إن كان للمريد إخوان في بلده، فإن لم يكن له إخوان تجانيون في بلاده جاز له أن يذكرها وحده مرة في كل يوم.

وأخبرني المقدم الشيخ عبد الكريم المنصوري ببعض فضائل هذا الورد وسأذكرها فيما بعد إن شاء الله، واستمررت على ذكر الورد والوظيفة بإخلاص ملتزماً الشروط مدة تسع سنين، وهناك ذكر آخر يكون يوم الجمعة متصلاً بغروب الشمس وهو: «لا إله إلا الله» ألف مرة، والأفضل أن يكون معه سماع قبله أو بعده، وهو إنشاد شيء من الشعر بالغناء والترنم جماعة ثم يقولون جميعاً: الله حي، والمنشد ينشدهم وهم قيام حتى يخلص عند تواجدهم إلى لفظ آه، آه، آه، ويسمون هذه الحالة العمارة، وقد تركوها منذ زمان طويل لأن أبناء الشيخ التجاني لا يستعملون هذه العمارة، وهم يأتون من الجزائر إلى المغرب وقد أشاروا على المغاربة أن يتركوا العمارة لأنهم لا يستحسنونها، ولكن في كتب الطريقة أنها فعلت أمام الشيخ أحمد التجاني وبرضاه وإقراره.

وكنت كلما أصابتني مصيبة أستغيث بالشيخ فلا يغيثني، فمن ذلك أني كنت في الجزائر مسافراً من ناحية (بركنت) بقرب حدود المغرب إلى (المشرية)، وكان لي رفيق له جمل فعلقه وأوصاني بحراسته وتركني في خيمة من خيام أهل البادية، فانحل عقال الجمل وانطلق في البرية فتبعته فأخذ يستهزئ بي، وذلك أنه يبقى وقفاً إلى أن أكاد أضع يدي على عنقه ثم يجفل مرج واحدة ويجري مسافة طويلة ثم يقف ينتظرني إلى أن أكاد أقبضه ثم يهرب مرة أخرى وذلك في نحر الظهيرة وشدة الحر، فقلت في نفسي: هذا وقت الاستغاثة بالشيخ فتضرعت إليه وبالغت في الاستغاثة أن يمكنني في قبض الجمل وإناخته فلم يستجب، فعدت على نفسي باللوم واتهمتها بعدم الإخلاص والتقصير في خدمة الطريقة ولم أتهم الشيخ البتة بعجز عن قضاء حاجتي، ومع أن شيوخ الطريقة يوصون المريد أن لا يطالع شيئاً من كتب التصوف إلا كتب الطريقة التجانية وقع في يدي مجلد من كتاب (الإحياء) للغزالي فطالعته فأثر في

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نفسي واجتهدت في العبادة والتزمت قيام الليل في شدة البرد، فبينما أن ذات ليلة أصلي قيام الليل أمام خيمتي الصغيرة التي كنت جالساً فيها يكاد رأسي يمس سقفها إذ رأيت غماماً أبيض سد الأفق كالجبل المرتفع من الأرض إلى السماء وأخذ ذلك الغمام يدنو مني آتياً من جهة الشرق -وهي قبلة المصلي في المغرب والجزائر- حتى وقف بعيداً مني وخرج منه شخص وتقدم حتى قرب مني ثم شرع يصلي بصلاتي مؤتماً بي، وثيابه تشبه ثياب جارية بنت خمس عشرة سنة، ولم أستطع أن أميز وجهه بسبب الظلام.

ولما شرع يصلي معي كنت أقرأ في سورة ألم السجدة ففزعت وخفت خوفاً شديداً، فخرجت منها إلى سورة أخرى أظنها سورة سبأ، ولم أستطع قراءة القرآن مع شدة حفظي له بسبب الرعب الذي أصابني، فتركت السور الطوال وأخذت أقرأ بالسور القصار التي لا تحتاج قراءاتها إلى رباطة جأش واستحضار فكر.

فصلى معي ست ركعات، ولم أرد أن أكلمه، لأن كتب الطريقة توصي المريد أن لا يشتغل بشيء مما يعرض له في سلوكه حتى يصل إلى الله، وتنكشف له الحجب فيشاهد العرش والفرش، ولا يبقى شيء من المغيبات خافياً عليه، ولما طال علي زمان الاضطراب دعوت الله في سجود الركعة السادسة فقلت: يا رب إن كان في كلام هذا الشخص خير فاجعله هو يكلمني، وإن لم يكن في كلامه خير فاصرفه عني، فلما سلمت من التشهد بعد الركعة السادسة سلم هو أيضاً، ولم أسمع له صوتاً ولكني رأيته التفت عند السلام إلى جهة اليمين كما يفعل المصلي المنفرد على مذهب المالكية، فإنه يسلم مرة واحدة عن يمينه، السلام عليكم دون أن يضيف إليها رحمة الله وبركاته، وإن كان مؤتماً بإمام يسلم ثلاث تسليمات إن كان بيساره مصل تسليمة عن يمينه وهي تسليمة التحليل وتسليمة أمامه للإمام، وتسليمة ثالثة عن شماله للمصلي الذي يجلس عن شماله وقد ثبت في الحديث الذي رواه أبو داود وصححه الحافظ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يسلم عن يمينه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعن يساره السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهذا هو الذي ينبغي لكل مصل أن يعتمد عليه سواء أكان إماماً أو مأموماً أو منفرداً.

وبعد السلام انصرف ومشى على مهل حتى دخل في الغمام الأبيض الذي كان قائماً في مكانه الذي كان ينتظره، وبعد دخوله في الغمام فوراً أخذ الغمام يتقهقر إلى جهة الشرق

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

حتى اختفى عن بصري وكان في قبيلة (حميان) شيخ شنقيطي صالح ما رأيت مثله في الزهد والورع ومكارم الأخلاق وسأذكره فيما بعد، فسافرت إليه وحكيت له تلك الحادثة فقال لي: يمكن أن يكون ذلك شيطاناً لو كان ملكاً ما أصابك فزع ولا رعب، فظهر لي أن رأيه صواب.

وبعد ذلك بزمن طويل أخذت أدرس علم الحديث، فرأيت كتاب (صحيح البخاري) ما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- حين جاءه جبريل وهو في غار حراء، فظهر لي أن رأي ذلك الشيخ رحمه الله غير صحيح وبقيت المشكلة بلا حل إلى الآن وكنت حينئذ مشركاً أستغيث بغير الله وأخاف غير الله.

ومن هذا تعلم أن ظهور الخوارق وما في عالم الغيب ليس دليلاً على صلاح ما ظهرت له تلك الخوارق ولا على ولايته لله البتة فإن كل مرتاض رياضة روحية تظهر له الخوارق على أي دين كان وقد سمعنا وقرأنا أن العباد الوثنيين من أهل الهند تقع لهم خوارق عظام.

وبعد ذلك بأيام رأيت في المنام رجلاً نبهني وأشار إلى الأفق فقال لي: انظر فرأيت ثلاثة رجال فقال لي إن الأوسط منهم هو النبي -صلى الله عليه وسلم- فذهبت إليه فلما وصلت إليه انصرف الرجلان اللذان كانا معه فأخذت يده وقلت يا رسول الله خذ بيدي إلى الله فقال لي اقرأ العلم ففكرت وعلمت أني في بلاد الجزائر وكان الفرنسيون مسؤولين عليها وكان فقهاء بلدنا يكفرون كل من سافر إلى الجزائر وإذا رجع من سفره يأمرونه بالاغتسال والدخول في الإسلام من جديد ويعقدون له عقداً جديداً على زوجته، فقلت في نفسي هذا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمرني بطلب العلم، وأنا في بلاد يحكمها النصارى، فإما أن أكون عاصياً أو كافراً فكيف يجوز لي أن أطلب فيها العلم. هذا كله وقع في لحظة وأنا لا أزال واقفاً أمام النبي -صلى الله عليه وسلم- فقلت في بلاد المسلمين أم في بلاد النصارى، فقال لي: البلاد كلها لله، فقلت: يا رسول الله ادع الله أن يختم لي بالإيمان فرفع اصبعه السبابة إلى السماء وقال لي: عند الله.

وبعدما خرجت من الطريقة التجانية على أثر المناظرة التي سأذكرها فيما بعد إن شاء الله بزمان رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- مرة أخرى في المنام على صورة تخالف الصورة التي رأيته عليها في المرة المذكورة، ففي الأولى كان طويلاً أبيض نحيفاً مشرباً بحمرة، لحيته

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بيضاء، أما في هذه المرة فكان ربعة من الرجال إلى الطول أقرب ولم يكن نحيفاً، ولحيته سوداء، وبياض وجهه وحمرته أقرب إلى ألوان العرب من المرة الأولى، وكانت رؤيتي له في فلاة من الأرض وكنت بعدما خرجت من الطريقة التجانية توسوس نفسي أحياناً بما في كتاب جواهر المعاني مما ينسب إلى الشيخ التجاني أنه قال: (من ترك ورده وأخذ وردنا وتمسك بطريقتنا هذه الأحمدية المحمدية الإبراهيمية الحنفية التجانية فلا خوف عليه من الله ولا من رسوله ولا من شيخه أياً كان من الأحياء أو من الأموات أما من أخذ وردنا وتركه فإنه يحل به البلاء وأخرى ولا يموت إلا كافراً قطعاً وبذلك أخبرني سيد الوجود -صلى الله عليه وسلم- يقظة ومناماً) وقال لي سيد الوجود -صلى الله عليه وسلم- فقراؤك فقرائي وتلاميذك تلاميذي وأنا مربيهم.

وسيأتي من هذه الأخبار وأمثالها إن شاء الله كثير في ذكر فضائل الأوراد والأصحاب فكنت أدفع هذا الوسواس بأدلة الكتاب والسنة، وأرجم شيطانه بأحجارها فيخنس ثم يخسأ ويدبر فاراً منهزماً فلما رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه المرة خطر ببالي ذلك فعزمت على أن أبدأ الكلام مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن أسأله أن يدعو الله لي أن يختم لي بالإيمان، وأظن القارئ لم ينس أني سألته في المرة الأولى فلم يدع لي ولكنه رفع إصبعه السبابة إلى السماء وقال عند الله، فقلت يا رسول الله، ادع الله أن يختم لي بالإيمان، فقال لي ادع أنت وأنا أؤمن على دعائك، فرفعت يدي وقلت اللهم اختم لي بالإيمان، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- آمين وكان رافعاً يديه، فزال عني ذلك الوسواس ولكني لم آمن مكر الله تعالى فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، والرؤيا تبشر ولا تغر، وبين هذه الرؤيا التي دعا لي فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يختم الله لي بالإيمان بتأمينه على دعائي والرؤيا التي قدمت ذكرها ولم يدع لي فيها، عشرون سنة، وتأولت اختلاف الصورة وعدم الدعاء في الرؤيا الأولى والدعاء في الرؤيا الثانية بما كنت عليه من الشرك في العبادة وبما صرت إليه من توحيد الله تعالى واتباع سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والله أعلم.

سبب خروجي من الطريقة التجانية:

لقد كنت في غمرة عظيمة، وضلال مبين، وكنت أرى خروجي من الطريقة التجانية كالخروج من الإسلام. ولم يكن يخطر لي ببال أن أتزحزح عنها قيد شعرة، وكان الشيخ عبد

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الحي الكتاني عدواً للطريقة التجانية لأنه كان شيخاً رسمياً للطريقة الكتانية، وإنما قلت رسمياً لأن أهل (سلا) أعني الكتانيين أنصار الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، مؤسس الطريقة الكتانية، لا يعترفون به أي بالشيخ عبد الحي ويقولون إن الاستعمار الفرنسي هو الذي فرضه على الكتانيين فرضاً، والذي حدثني بذلك هو العالم الأديب النبيل الشيخ عبد الله بن سعيد السلوي فإنه كان حامل لواء نصرة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني، وكان يعادي أخاه عبد الحي عداوة شديدة ويرميه بالعظائم والكبائر التي لا يسوغ ذكرها هنا والاستطراد بذكر أسباب العداوة بين الشيخين الكتانيين الأخوين يخرج بنا عن الموضوع.

أقول مر بنا الشيخ عبد الحي في (وجدة) وأنا عند العالم الأديب الشاعر المتفنن في علوم كثيرة الشيخ أحمد سكيرج، قاضي القضاة بناحية (وجدة)، معلماً لولده الأديب السيد عبد الكريم وابن أخيه السيد عبد السلام، كنت أعلمهما الأدب العربي بدعوة من الشيخ أحمد سكيرج، فمدحت عبد الحي بقصيدة ضاعت مني ولا أذكر شيئاً منها، ولكنه أعجب بها أيما إعجاب، حتى قال لي عاهدني أنك إذا قدمت (فاساً) تنزل عندي ضيفاً فعاهدته على ذلك. ففي ربيع الأول من سنة أربعين من هذا القرن الهجري سافرت إلى فاس ونزلت عنده.

وولد له في تلك الأيام ولد سماه عبد الأحد فالتمس مني نظم أبيات في التهنئة وتاريخ مولده فنظمتها ولا أذكر منها شيئاً، وفي اليوم السابع من مولده عمل مأدبة عظيمة دعا لها خلقاً كثيراً وبعد ما أكلوا وشربوا قاموا (للعمارة) – ذكر بالرقص والتمايل – التي تقدم ذكرها ودعوني أشاركهم في باطلهم فامتنعت لأن من شروط التجاني المخلص أن لا يذكر مع طريقة أخرى ذكرهم وأن لا يرقص معهم.

وفي كتاب البغية للشيخ العربي ابن السايح وهو شرح المنية للتجاني ابن بابا الشنقيطي حكاية في وعيد شديد لمن يشارك أصحاب الطرائق الأخرى في أورادهم وأذكارهم وحاصلها أن شخصاً تجانياً ذهب إلى زاوية طريقة أخرى لغرض دنيوي فاستحى أن يبقى منفرداً عنه وهم يذكرون وظيفتهم فشاركهم في الذكر فلما فتح فاه ليذكر معهم أصابه الشلل في فكيه فبقي فاه مفغوراً ولم يستطع سده حتى مات.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولكن الجماعة ألحوا علي وجروني جراً حتى أوقفوني في حلقتهم فرأيت أفواهاً مفغورة من وجوه بعضها فيه لحية سوداء، وبعضها فيه لحية خطها الشيب، وبعضها أمرد ليس له لحية من الغلمان الذين لم يلتحوا بعد، أما حلق اللحى فلم يكن موجوداً في ذلك الزمن إلا عند الفرنسيين المستعمرين وقليل جداً من حواشيهم وسمعت أصواتاً تنبعث من تلك الأفواه ليس لها معنى في أي لغة بعضها آآآ وبعضها آه آه آه، وبعضها أحن أح أح فاستنكرت تلك الهيئة وقلت في نفسي إن الله لا يرضى بهذه الحالة أن تكون عبادة له لبشاعتها ثم ندمت على ذلك ندامة الكسعي أو الفرزدق حين طلق نوار فقال:

ندمت ندامة الكسعي لما عدت مني مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار

وقلت في نفسي كيف يسوغ لي أن أنكر شيئاً حضر مثله خاتم الأولياء القطب سيدي أحمد التجاني فتبت من ذلك الخاطر ولكن جاءني امتحان آخر وذلك أن الشيخ عبد الحي الكتاني قال لي منتقداً: إن الطريقة التجانية مبنية على شفا جرف، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يتمسك بها فقلت له: (والطريقة الكتانية التي أنت شيخها)؟ فقال لي كل الطرائق باطلة، وإنما هي صناعة للاحتيال على أكل أموال الناس بالباطل وتسخيرهم واستعبادهم، فقلت إذن أنت تستحل أموال الناس بالباطل وتسخرهم وتستعبدهم، قال: أنا لم أؤسس الطريقة وإنما أسسها غيري، وهذه الأموال التي آخذها منهم أنفقتها في مصالح لا ينفقونها هم فيها.

ثم قلت له: ومن الذي حملك على الطعن في الطرائق وما دليلك على بطلانها؟ قال لي: ادعاء كل من الشيخين أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يحضر بذاته وظيفة أصحابه حين يذكرونها وهذه قلة حياء منهما، وعدم تعظيم للنبي –صلى الله عليه وسلم– كيف تكلفونه أن يخرج من قبره ويقطع هذه المسافات من البر والبحر ليجلس أمامكم فأنتم تبسطون له ثوباً أبيض ليجلس عليه وأصحابنا يقومون ويذهبون إلى الباب ليتلقوه، فقلت: إذاً أنت لا تعتقد صحة طريقك؟ فقال: لا أعتقدها أبداً وقد أخبرتك أنها صناعة لأكل أموال الناس بالباطل. وأزيدك على ذلك اعتماد طريقتكم على كتاب (جواهر المعاني) الذي تزعمون أن شيخكم أحمد التجاني أملاه على علي حرازم نصفه مسروق، فأحد المجلدين وهو الأول مسروق بالحرف وهو تأليف لمحمد عبد الله المدفون بكذا وكذا بفاس، وسمى ناحية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نسيتها الآن، قال وأنا قابلت الكتابين من أولهما إلى آخرهما فوجدت المجلد الأول من (جواهر المعاني) مسروقاً كله من كلام الشيخ المذكور ففارقته.

وبعد أيام كنت جالساً عند الشيخ عمر بن الخياط بائع الكتب بقرب القرويين فقال لي: هل اجتمعت بالأستاذ الشيخ محمد بن العربي العلوي، فقلت:لا، فقال لي: هذا الرجل من أفضل علماء فاس وعنده خزانة كتب لا يوجد مثلها في فاس وأثنى عليه بالعلم والأدب فقلت له أنا لا أجالس هذا الرجل ولا أجتمع به لأنه يبغض الشيخ أحمد التجاني ويطعن في طريقته فقال لي: إن طالب العلم يجب أن يتسع فكره وخلقه لمجالسة جميع الناس وبذلك يتسع علمه وأدبه ولا يجب عليه أن يقلدهم في كل ما يدعون، يأخذ ما صفا ويدع ما كدر، وإن لم تجتمع بهذا الرجل يفوتك علم وأدب كثير.

فذهبت إليه لأجتمع به، وكان قاضياً في محكمة فاس الجديدة فنظمت أربعة أبيات لا أحفظ منها إلا شطر البيت الرابع وهو (وهذا مدى قصدي .. وما أنا مستجد) .. أعني أن غرضي بالاجتماع بك المذاكرة العلمية فهي غاية قصدي وإن اعتبرنا ما موصولة يكون المعنى والذي أستجديه أي أطلبه وإن اعتبرناها نافية تميمية يكون المعنى ولست مستجدياً أي طالباً مالاً، فلما خرج من المحكمة وأراد أن يركب بغلته التي كانت على باب المحكمة ولجامها بيد خادمه تقدمت إليه وأعطيته الصحيفة التي فيها الأبيات فلما قرأها رحب بي، وقال لطالب كان يرافقني وهو الحاج محمد بن الشيخ الأراري: أنت تعرف بيتنا، فقال: نعم، قال: فأتى به على الساعة التاسعة صباحاً، فخرجت مع الرفيق المذكور من مدرسة الشراطين، وكان يسكن فيها على الساعة الثامنة والنصف، لنصل إلى الشيخ على الساعة التاسعة، وكان ذلك اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وهو عيد عند المغاربة وكثير من البلدان الإسلامية وفي المغرب طائفة يسمون (العيساويين) أتباع الشيخ بن عيسى المكناسي، وهؤلاء لهم موسم في كل سنة يجتمعون فيه في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ويأتون من جميع أنحاء المغرب، فيضربون طبولهم ومزاميرهم، ويترنمون بأناشيدهم إلى أن يظهر للناس أنهم أصيبوا بالجنون وحينئذ يفترسون الغنم والدجاج بدون زكاة بل يقطعونه بأظافرهم ويأكلون لحمه نيئاً والدم يسيل منه وقد ملئوا أزقة فاس وهي ضيقة في ذلك الزمن، وحتى في هذا الزمن، فلم نستطع أن نصل إلى بيت الشيخ إلا بعد مضي ساعتين ونصف من شدة الزحام فلما وصلنا وأخبرنا بوابه، ذهب

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ثم رجع إلينا وقال: إنكما لم تجيئا في الموعد المضروب والشيخ مشغول عنده حكام فرنسيون فارجعا إليه بعد صلاة العصر فرجعنا وقلت لصاحبي: لا نرجع إليه فقد كفانا الله شر لقائه لأنه مبغض لشيخنا وطريقته فالخير في ما اختاره الله تعالى. فقال لي ليس الشيخ بملوم وقد اعتذر بعذر قائم والصواب أن نرجع إليه، فرجعنا إليه بعد العصر، ووجدت عنده من الترحيب والبشاشة والإكرام والتواضع ما لم أجده عند الشيخ الكتاني ولا عند أحد من علماء فاس.

وأخذنا في أحاديث أدبية وكان يقوم ويأتي بالكتب ويضعها أمامي. ووجدته كما قال السيد عمر بن الخياط. ولما كادت الشمس تغرب استأذنته في الانصراف فقال لي: أين تذهب، أنت غريب في هذا البلد وهذا المكان معد للضيوف لا نحتاج إليه فامكث، وبت هنا؛ وقبلت دعوته، وبعد أن صلينا المغرب جاء أصحابه، أذكر منهم الشيخ عبد السلام الصرغيني، والشيخ المهدي العلوي، وهو لا يزال في قيد الحياة؛ أما الأول فقد مات فأخذ بعضهم يلعب الشطرنج وهو يراهم ولا ينكر عليهم فقلت في نفسي هذا دليل على أنه من العلماء الذين لا يعملون بعلمهم فهو جدير أن ينكر على أولياء الله ما خصهم الله به من كرامة.

ثم تركوا الشطرنج وأخذوا ينتقدون الطريق الكتانية ويستهزئون بها ويسخرون من أهلها وكل منهم يحكي حكاية. فقال الشيخ عندي حكاية هي أعجب وأغرب مما عندكم؛ جاءني شاب كان متمسكاً بالطريقة الكتانية تمسكاً عظيماً فقال لي: أريد أن أتوب على يدك من الطرائق كلها وتعلمني التمسك بالكتاب والسنة، فقلت له: وما الذي دعاك إلى الخروج من طريقتك التي كنت مغتبطاً بها. فقال لي: إنه أمس شرب الخمر وزنا وترك صلاة العصر والمغرب والعشاء فمر بالزاوية الكتانية وسمع المريدين يرقصون ويصيحون بأصوات عالية والمنشد ينشدهم، وكانت بقية سكر لا تزال مسيطرة عليه، فهم أن يدخل الزاوية، ويرقص معهم، ولكنه أحجم عن ذلك لأنه جنب ولم يصل شيئاً من الصلوات في ذلك النهار، إلا أن سكره غلب على عقله فدخل الزاوية ووجد الشيخ محمد بن عبد الكبير في صدر الحلقة، والمريدون يرقصون فاشتغل معهم في الرقص، وكان أنشطهم فلما فرغوا من رقصهم دعاه الشيخ وقبله في فمه وقال (رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- قبلك فاقتديت به)! قال ولما

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

دعاني خفت خوفاً شديداً وظننت أنه انكشف له حالي وهو يريد أن يوبخني على ذنوبي، فلما قال لي، أيقنت أنه كاذب في كل ما يدعيه ويدعو إليه وإلا كيف يرضى عني النبي –صلى الله عليه وسلم– ويقبلني في فمي مع تلك الكبائر التي ارتكبتها في ذلك اليوم. قال: فهذا سبب مجيئي إليك لأتوب إلى الله من الطرائق كلها وأتبع طريقة الكتاب والسنة.

ولما رأيتهم أنا يعيبون الطريقة الكتانية ويستهزئون بها أصابني خوف شديد وندمت على زيارتي للشيخ فقلت لنفسي هذا الذي كنت أخافه وقد وقعت فيه فكيف الخلاص؟

وذكرت قول التجاني ابن بابا في منيته:

ومن يجالس مبغض الشيخ هلك وضل في مهامة وفي حلك

وشدد النهى لنا الرسول في ذاك فلتعمل بما أقول

والشيخ قال هو سم يسري يحل من فعله في خسر

ومعنى ذلك أن الشيخ أحمد التجاني قال: قال لي سيد الوجود –صلى الله عليه وسلم– يقظة لا مناماً، قل لأصحابك لا يجالسوا المبغضين لك فإن ذلك يؤذيني فصممت على أن أخرج من ذلك المجلس.

فقمت فقال لي الشيخ إلى أين؟ فقلت: إلى بيت الخلاء، كذبت عليه، فلما وصلت إلى الباب منعني البواب من الخروج، وقال لي: وهل أذن لك الشيخ في الخروج، فقلت: نعم، فقال لي: هذا محال لأنك غريب والقانون الفرنسي يقضي بأن التجول بعد الساعة العاشرة ليلاً فيه خطر، فإنك لا تمشي خطوات حتى يقبضوا عليك وتؤخذ إلى السجن، وتبقى فيه إلى ضحى الغد وحينئذ ينظر في إطلاق سراحك. وقال لي: أنا لا أفتح لك الباب إلا إذا سمعت الإذن من الشيخ، فقلت له: إذا أرجع. ورجعت وجلست في مكاني، ولم تخفى حالي عن الشيخ فقال لي أراك منقبضاً؛ فما سبب انقباضك؟ فقلت سببه أنكم انتقلت من الطعن في الطريقة الكتانية إلى الطريقة التجانية، وأنا تجاني لا يجوز لي أن أجلس في مجلس أسمع فيه طعن في شيخي وطريقته.

فقال لي: لا بأس عليك، أنا أيضاً كنت تجانياً وخرجت من الطريقة التجانية لما ظهر لي بطلانها، فإن كنت تريد أن تتمسك بهذه الطريقة على جهل وتقليد فلك علي ألا تسمع بعد الآن في مجلس انتقاداً لها أو طعناً فيها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وإن كنت تريد أن تسلك مسلك أهل العلم فهلم إلى المناظرة، فإن ظهرت علي رجعت إلى الطريقة، وإن ظهرت عليك خرجت منها كما فعلت أنا. فأخذتني النخوة ولم أرض أن أعترف أني أتمسك بها على جهل فقلت قبلت المناظرة.

مناظرة حول ادعاء الشيخ التجاني في أنه رأى النبي في اليقظة:

قال الشيخ أريد أن أناظرك في مسألة واحدة إن ثبتت ثبتت الطريقة كلها، وإن بطلت بطلت الطريقة كلها، قلت ما هي؟ قال: ادعاء التجاني أنه رأى النبي –صلى الله عليه وسلم– يقظة لا مناماً، وأعطاه هذه الطريقة بما فيها من الفضائل فإن ثبتت رؤيته للنبي – صلى الله عليه وسلم– يقظة وأخذه منه الطريقة فأنت على حق وأنا على باطل والرجوع إلى الحق، وإن بطل ادعاؤه فأنا على حق وأنت على باطل فيجب عليك أن تترك وتتمسك بالحق. ثم قال: تبدأ أنت أو أبدأ أنا؟ فقلت: ابدأ أنت، فقال: عندي أدلة كل واحد منها كاف في إبطال دعوى التجاني. قلت: هات ما عندك وعلي الجواب، فقال:

الأول: إن أول خلاف وقع بين الصحابة بعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم– كان بسبب الخلافة؛ قالت الأنصار للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، وقال المهاجرون: إن العرب لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش. ووقع نزاع شديد بين الفريقين حتى شغلهم عن دفن النبي –صلى الله عليه وسلم– فبقي ثلاثة أيام بلا دفن –صلاة الله وسلامه عليه– فكيف لم يظهر لأصحابه ويفصل النزاع بينهم ويقول الخليفة فلان فينهي النزاع؟ كيف يترك هذا الأمر العظيم لو كان يكلم أحداً يقظة بعد موته لكلم أصحابه وأصبح بينهم، وذلك أهم من ظهوره للشيخ التجاني ألف ومائتي سنة، ولماذا ظهر؟ ليقول له أنت من الآمنين، ومن أحبك من الآمنين، ومن أخذ وردك يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب هو ووالده وأزواجه لا الحفدة، فكيف يترك النبي –صلى الله عليه وسلم– الظهور يقظة والكلام لأفضل الناس بعده في أهم الأمور ويظهر لرجل لا يساويهم في الفضل ولا يقاربهم لأمر غير مهم، فقلت له:

إن الشيخ –رضي الله عنه– قد أجاب عن هذا الاعتراض في حياته فقال: إن النبي – صلى الله عليه وسلم– كان يلقى الخاص للخاص والعام للعام في حياته، أما بعد وفاته فقد انقطع إلقاء العام للعام وبقي إلقاء الخاص للخاص لم ينقطع بوفاته، وهذا الذي ألقاه إلى شيخنا من إعطاء الورد والفضائل هو من الخاص للخاص. فقال أنا لا أسلم في أن الشريعة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

خاصاً وعاماً لأن أحكام الشرع خمسة وهذا الورد وفضائله إن كان من الدين فلا بد أن يدخل في الأحكام الخمسة لأنه عمل أعد الله لعامله ثواباً؛ فهو إما واجب أو مستحب ولم ينتقل النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى حتى بين لأمته جميع الواجبات والمستحبات.

وفي صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قيل له هل خصكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معشر أهل البيت بشيء فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما خصنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشيء إلا فهماً يعطاه الرجل في كتاب الله، وإلا ما في هذه الصحيفة ففتحوها فإذا فيها العقل وفكاك الأسير وألا يقتل مسلم بكافر. فكيف لا يخص النبي -صلى الله عليه وسلم- أهل بيته وخلفاءه بشيء ثم يخص رجلاً في آخر الزمان بما يتنافى مع أحكام الكتاب والسنة. فقلت: إن الشيخ عالم بالكتاب والسنة وفي جوابه مقنع لمن أراد أن يقنع. قال احفظ هذا.

الثاني: اختلاف أبي بكر مع فاطمة الزهراء رضي الله عنهما على الميراث فلا يخفى أن فاطمة طلبت من أبي بكر الصديق رضي الله عنه حقها من ميراث أبيها واحتجت عليه بأن إذا مات هو يرثه أبناؤه، فلماذا يمنعها من ميراث أبيها، فأجابها أبو بكر الصديق بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة». وقد حضر ذلك جماعة من الصحابة فبقيت فاطمة الزهراء مغاضبة لأبي بكر حتى ماتت بعد ستة أشهر بعد وفاة أبيها -صلى الله عليه وسلم-. فهذا حبيبان لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فإنه قال: فاطمة بضعة مني يسؤني ما ساءها، أو كما قال عليه الصلاة والسلام وصرح بأن أبا بكر الصديق أحب الناس إليه، وقال: «ما أحد أمنّ علي في نفس ولا مال من أبي بكر الصديق» رواه البخاري.

وهذه المغاضبة التي وقعت بين أبي بكر وفاطمة، تسوء النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلو كان يظهر لأحد بعد وفاته لغرض من الأغراض لظهر لأبي بكر الصديق وقال له: إني رجعت عما قلته في حياتي فأعطها حقها من الميراث، أو لظهر لفاطمة وقال لها يا ابنتي لا تغضبي على أبي بكر فإنه لم يفعل إلا ما أمرته به، فقلت له: ليس عندي من الجواب إلا ما سمعت قال احفظ هذا.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الثالث: الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة، وعلي بين أبي طالب من جهة أخرى واشتد النزاع بينهما حتى وقعت حرب الجمل، في البصرة فقتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين وعقر جمل عائشة فكيف يهون على النبي -صلى الله عليه وسلم- سفك هذه الدماء ووقوع هذا الشر بين المسلمين بل بين أخص الناس به، وهو يستطيع أن يحقن هذه الدماء بكلمة واحدة، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى في آخر سورة التوبة برأفته ورحمته بالمؤمنين وأنه يشق عليه كل ما يصيبهم من العنت، وذلك في قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }[التوبة:١٢٨] فقلت له ليس عندي من الجواب إلا ما سمعت وظهوره وكلامه للشيخ التجاني فضل من الله، والله يؤتي فضله من يشاء. قال احفظ هذا وفكر فيه.

الرابع: خلاف علي مع الخوارج وقد سفكت فيه دماء كثيرة، ولو ظهر النبي -صلى الله عليه وسلم- لرئيس الخوارج وأمره بطاعة إمامه لحقنت تلك الدماء، فقلت الجواب هو ما سمعت، فقال لي: احفظ هذا وفكر فيه، فإني أرجو أنك بعد التفكير ترجع إلى الحق.

الخامس: النزاع الذي وقع بين معاوية وعلي، وقد قتل في الحرب التي وقعت بينهما خلق كثير، منهم عمار بن ياسر، فكيف يترك النبي -صلى الله عليه وسلم- الظهور لأفضل الناس بعده وفي ظهوره هذه المصالح المهمة من جمع كلمة المسلمين وإصلاح ذات بينهم وحقن دمائهم، وهو خير المصلحين بقوله تعالى: {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ }[الأنفال:١] وقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات:١٠] ثم يظهر للشيخ التجاني في آخر الزمان لغرض غير مهم وهو في نفسه غير معقول لأنه مضاد لنصوص الكتاب والسنة.

فلم يجد عندي جواباً غير ما تقدم ولكني لم أسلم له فقال فكر في هذه الأدلة وسنتباحث في المجلس الآخر، فعقدنا بعد هذا المجلس سبعة مجالس كل منها كان يستمر من بعد صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بكثير. وحينئذ أيقنت أنني كنت ضلال، ولكن أردت أن أزداد يقيناً فقلت له: (من معك من العلماء هنا في المغرب على هذه العقيدة، وهي أن مسألة في العقائد أو في الفروع يجب أن نعرضها مع قصر باعنا وقلة اطلاعنا على كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فما ظهر لنا أنه موافق لهما قبلناه وما ظهر لنا أنه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مخالف رددناه) فقال لي: يوافقني على هذا أكبر مقدم للطريقة التجانية في المغرب كله وهو الشيخ الفاطمي الشرادي، فكدت أكذبه لأن المشهور في جميع أنحاء المغرب أن هذا الرجل من كبار العلماء، وهو أكبر مقدم للطريقة التجانية، ولم أقل أكبر شيخ لأن الشيخ التجاني لا يبيح أن يكون شيخاً للطريقة سواه، لأن تلقيبه بالشيخ قد يفهم منه أنه يجوز لغيره أن يتصرف في أوراد الطريقة وفضائلها وعقائدها وذلك ممنوع لأن الذي أعطى هذه الطريقة هو النبي -صلى الله عليه وسلم-يقظة لا مناماً كما تقدم، والمتلقي الأول لها هو الشيخ أحمد التجاني والنبي -صلى الله عليه وسلم- سماه شيخاً لهذه الطريقة، وكل ناشر للطريقة وملقن لأورادها يسمى مقدماً فقط فالطريقة لها مصدر واحد وشيخ واحد ولا يجوز تعدد المصدر ولا تعدد الشيخ حسبما في كتب الطريقة.

مع الشيخ الفاطمي الشرادي:

فتوجهت إلى الشيخ الفاطمي رحمه الله وكان الوقت ضحى وقد أوصاني شيخنا محمد بن العربي ألا أسأله إلا في خلوة فوجدت عنده جماعة فانصرف بعضهم وجاء آخرون وبقيت عنده أنتظر أن أخلو به حتى صلينا الظهر وجاء الغداء فلم أستطع أن أخلو به وكان ثلاثة ممن كانوا في مجلسه حاضرين، فقلت له: إن الشيخ محمد بن العربي العلوي يقول يجب علينا أن نعرض جميع المسائل أصولاً وفروعاً على كتاب الله وسنة رسوله فما وافق في نظرنا القاصر قبلناه وما خالف رددنا، ولو قال به الإمام مالك أو الشيخ أحمد التجاني، فأشار إلي بيده يستمهلني، وكان جلوسي عنده قد طال فانصرفت إلى مدرسة الشراطين حيث كنت نازلاً قبل لقائي بالشيخ العلوي، وفي ذلك اليوم بعد صلاة العشاء جاءني بواب المدرسة وقال لي إن الشيخ الفاطمي الشرادي أرسل إليك عبده وبغلته يطلب أن تزوره، فتعجبت كثيراً لأمرين:

أحدهما: أن الوقت ليس وقت زيارة.

وثانيهما: أنه لم تجر العادة أن كبار العلماء الطاعنين في السن، يبعثون الدابة للركوب إلا لمن هو مثلهم في السن والعلم وأنا شاب.

فركبت البغلة وسار العبد أمامي حتى وصلت إليه وسلمت عليه فرد أحسن رد ورحب بي، وقال لي: يا ولدي أنا رجل كبير طاعن في السن ليس لي قدرة على القتال، أما سيدي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

محمد بن العربي العلوي فهو شاب مستعد للقتال وأنت سألتني أمام الناس عن مسألة مهمة لا يسعني أن أكتم جوابها، ولا أستطيع أن أصرح به أمام الناس، فأعلم أن ما قال لك سيدي محمد بن العربي العلوي هو الحق الذي لا شك فيه، وقد أخذت الطريقة القادرية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة الوزانية وبقيت فيها زماناً، ثم أخذت الطريقة التجانية والتزمتها حتى صرت مقدماً فيها فلم أجد في هذه الطرائق فائدة، وتركتها كلها ولم يبق عندي من التصوف إلا طلب الشيخ المربي على الكتاب والسنة علماً وعملاً، ولو وجدته لصاحبته وصرت تلميذاً له، وأنت تريد أن تسافر إلى الشرق فإن ظفرت بشيخ مرب متخلق بأخلاق الكتاب والسنة علماً وعملاً فاكتب إلي وأخبرني به حتى أشد الرحال إليه فازددت يقيناً بالنتيجة التي وصلت إليها في مناظرتي مع الشيخ العلوي.

ولو كان عندي من العلم مثل ما عندي الآن لقلت له إن ضالتك المنشودة هي أقرب إليك من كل قريب فإن هذا الشيخ الذي تطلبه وتريد أن تشد الرحال إليه ولو بعدت الدار وشط المزار هو أنت نفسك. بشرط أن يكون عندك العزم التام على العمل بالكتاب والسنة وطرح التقليد جانباً كيفما كان الأمر فجزاهم الله خيراً وتغمدهما برحمته.

مع الشيخ عبد العزيز بن إدريس:

وبعد ذلك بعشرين سنة اجتمعت مع الشيخ عبد العزيز بن إدريس من علماء تطوان وهو أحد تلامذة الشيخ الفاطمي فذكرت له الحكاية السالفة، فقال لي: وأنا أيضاً وقع لي ما يشبه هذا، فإني بعد إتمام دراستي في جامع القرويين ذهبت إليه وهو أفضل شيوخي فقلت له أيها الشيخ أريد أن أرجع إلى وطني تطوان فأريد أن تزودني بدعائك الصالح وأن تلقني ورد الطريقة التجانية، فقال لي يا أسفي عليك، أنت تحفظ كتاب الله وقد درست العلوم الإلهية التي تمكنك من فهم كتابه وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولم يكفك ذلك كله حتى تطلب الهدى في غيره، والطريقة لا شيء، فعليك بكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- فكشف الله عني بفضله ظلام الشرك والبدعة، وفتح لي باب التوحيد والاتباع فله

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الحمد والمنة نسأله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه الهادي إلى الصراط المستقيم». [1]

الرجال الأكثر تأثيراً في حياته

ويؤكد الشيخ هنا ما سبق تقريره من قبل حين أشار إلى أولئك الذين على أيديهم صححت مسيرته في طلب العلم الحق ، فيقول:

«إن أولهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إن صحت الرؤيا، وأظنها إن شاء الله صحيحة. والثاني محمد سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي. والثالث محمد بن العربي العلوي المدغري المغربي. والرابع الشيخ الفاطمي الشراوي. والخامس السيد محمد رشيد رضا. والسادس الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري مؤلف (تحفة الأحوذي)».

أحب العلوم إليه

ويحدد الشيخ ما يؤثره من علومه فيقول: أحبها إليّ علوم الحديث وعلوم القرآن لأني أحب اتباع الكتاب والسنة، وأكره مخالفتهما، ثم علم النحو وسائر علوم الأدب، ثم علم اللغات، ولا أعرف علة ذلك.

ولعل مرد هذا فيما نرى إلى صلة هذه العلوم بالنفس الإنسانية. فالنحو والأدب واللغات صور متعددة لأصول واحدة، فبالنحو نعرف أسرار العلائق بين الألفاظ في التركيب، وبين التركيب والمضمون النفسي، وليس الأدب وعلم اللغات عن ذلك ببعيد، لأن الباحث لا يستطيع رصد التطورات الطوارئ عليهما إلا من خلال الواقع النفسي لصائغي هذا التراث أفراداً وشعوباً.

أما الصلة بين هذه الفنون وعلمي القرآن والحديث، فعلى غاية من التواثق، إذ لا سبيل لأحد إلى تذوق النظم القرآني، واستشراف دقائق الوحي في الكتاب والسنة إذا لم يكن على زاد وفير من الإدراك والتذوق لهذه الفنون.

أهم الأحداث التي عرضت له

[1] (الهدية الهادية من ص٧-٢١) انتهى منه بلفظه

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يقول فضيلته: أما القضاء فإنني أكرهه، وقد عرض علي سنة أربعين وثلاثمائة وألف، عرضه علي الشيخ أحمد سكيرج، وكان قاضي القضاة بناحية وجدة.

ورأيته بعيني يتملق للمراقب الفرنسي ويستشيره قبل البت في القضايا المهمة ويقع بينهما جدال، مع أن ذلك القضاء كان شرعياً محضاً، فرفضت. وهناك داعٍ آخر وهو بغض الاستعمار ونية محاربته. وأذكر هنا بعض الأحداث:

كنت محاضراً وطالباً في جامعة بون فاتهم الأستاذ باول كالي بل اتهمت زوجته بالميل إلى اليهود ولم يتبرأ منها، فعزل من منصبه في الجامعة، وكان جزء من راتبي يأخذه هو من مصدر مجهول عندي [٢] ويسلمه إلي. فهرب هو إلى بريطانيا، والجزء الذي كنت آخذه من الجامعة لا يكفيني، فوقعت في أزمة شديدة، ولكن الله فرج عني بأن طلبتني وزارة الدعاية، كما تقدم، وصرت آخذ راتباً ضخماً بلغ ألف وأربعمائة مارك.

ومن هذه الأحداث أن سماحة الأستاذ السيد محمد أمين الحسيني -رحمه الله- بعثني في مهمة سياسية أثناء الحرب الثانية العالمية إلى شمال المغرب . وكان الإنجليز قد أمروا السفير العراقي في روما، أو أحد موظفي السفارة، أن لا يجدد جواز سفري، وخبرني أن السفارة لا تعترف بأني عراقي، وكان السفير إذ ذاك مزاحم الباججي، فلا أدري أبلغه الخبر فخاف الإنجليز أم قدر الإنجليز بدهائهم المعروف أن ينفذوا أمرهم بوساطة من دونه من الموظفين في السفارة العراقية، وحينئذ بعث إليّ السفير المغربي عبد الخالق الطريسي رحمه الله جوازاً على أنني من أهل تطوان. وبهذا الجواز سافرت إلى المغرب فظن الإسبانيون أن حكومة هتلر أرسلتني إلى منطقة حمايتهم لتطردهم وتحل الحماية الألمانية مكان حمايتهم وصرحوا إليّ بذلك قائلين، بعد أن نزعوا مني ذلك الجواز بدعوى أنه مزور:

إنني لست من أهل تطوان، بل من المنطقة السلطانية الواقعة تحت الحماية الفرنسية. وبعد مفاوضات طويلة قالوا: إن كنت بريئاً من هذه التهمة فاكتب مقالاً في صحيفة «الحرية» لسان حزب الإصلاح الوطني، وصرح فيه بأن لا حق لألمانية في استعمار المغرب، أو بسط حمايتها على أي جزء منه.

---

[٢] الظاهر أن مراد الشيخ أن كالي كان يعينه بجزء لا يدري مصدره .

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فاستشرت الزعيم عبد الخالق رئيس الحزب المذكور، فلم ير بأساً، فكتبت مقالاً طويلاً ذكرت فيه أن المغرب للمغاربة لا حق فيه لألمانية ولا لفرنسة ولا لإسبانية ولا لغيرهن من الدول، ففرحوا بذلك واقتنعوا أنهم كانوا متوهمين، فأعطوني إقامة في المدن فقط، وشرطوا علي أن لا أتعاون مع الوطنيين في أي أمر سياسي، فلا مقال ولا كلمة ولا درس إلا بعد إذنهم وإلا فإنهم يسلمونني إلى الفرنسيين، فالتزمت لهم ذلك وأقمت خمس سنين في منطقة نفوذهم. وفي أثنائها وردني كتاب من الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله يقول لي فيه:

لنا مكاتبون ومراسلون من جميع أنحاء العالم الإسلامي إلا المغرب. فأرجو منك أن تبحث لنا عن مراسل وتخبرنا بقدر المكافأة التي يتطلبها عن كل مقال يرسله إلى صحيفة الإخوان المسلمين، وإن قدرت أنت أن تقوم بهذا الأمر فهو أحب إلينا. فقبلت الطلب وبدأت أراسل صحيفة الإخوان المسلمين سراً بواسطة البريد الإنجليزي في تطوان. ولكن الإسبانيين كانوا قد اتفقوا مع أحد الموظفين المغاربة في البريد الإنجليزي أنه متى رأى رسالة أو مقالاً لا يذكرهم بخير أو شر ينسخ لهم نسخة منه يعطونه مكافأة عظيمة على كل رسالة أو مقال. فأطلعهم على جميع المقالات التي أرسلتها إلى صحيفة الإخوان المسلمين، فقبضوا عليّ وزجوني في السجن ولم يوجهوا إليّ أي اتهام.

وبقيت فيه ثلاثة أيام، فاحتج أهل المدينة التي كنت فيها، وهي شفشاون، لدى السفير الإسباني في طنجة. وأذاعت محطة لندن باللهجة المغربية الحادثة والاحتجاج، فأطلقوا سرحي، ولما طلبت منهم تبديل النقود بالنقد الأجنبي، وهو الجنيه المصري، رفضوا، وأشاروا إني نقضت الوعد الذي وعدتهم وقال لي المراقب المدني: نحن لسنا مغفلين وقد كنا من قبل مغفلين .

ولكن الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي بارك الله فيه أجبرهم على تبديل النقود. وسافرت إلى العراق، وترجمت كتاباً من الإنجليزية إلى العربية ساءهم بعدما نشر، وكتبت مقالات نشرت في صحيفة «السجل» البغدادية، ذكرت فيها شيئاً من جرائمهم التي كانوا يرتكبونها في منطقة نفوذهم، فوقعوا في ما خافوا منه.

نشاط الشيخ في خدمة العلم:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

يقول الشيخ اهلالي –رحمه الله–: أول اشتغالي بالتدريس كان في زمن أستاذي الشيخ سيدي بن حبيب الله التندغي الشنقيطي الذي تقدم ذكره، فإنه كان إذا سافر ينيبني عنه في تدريس الطلبة وكان يقول للناس: (كل ما عندي من العلم فهو عند هذا الفتى وزيادة).

وهذا من حسن ظنه، والله قادر على أن يحققه. ثم إن أحد الحكام العرب وهو الحاج «أحمد باشن أغا» من ناحية أربواث في جنوب الجزائر، التمس من شيخنا أن يأذن لي في التدريس عنده، وكان هو نفسه يحضر الدرس وابنه القائد البشير وجماعة من الناس. وبقيت عنده سنتين، وقد توفي في السنة الثانية شيخنا المذكور، ثم سافرت إلى وجدة وفاس، والتمس مني العالم الأديب الشيخ أحمد سكيرج تدريس ابنه عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام شيئاً من علوم الأدب العربي، فدرستهما سنة كاملة، وهو الذي ساعدني على تحصيل جواز السفر إلى الشرق.

وكان الفرنسيون المستعمرون لا يسمحون بمنع جواز السفر إلا لمن يعرفونه ويثقون بإخلاصه لهم، وخصوصاً الشباب المثقف. فكتب إلى السفير الفرنسي يقول : (إن محمد تقي هو بمنزلة ابني عبد الكريم وهو محب للدولة الفرنسية وأنا أضمنه).

وهذا كان من شدة إكرامه لي، وإلا فقد كان يعلم عكس ذلك. ومع ذلك بقيت شهراً كاملاً أتردد على المراقبة الفرنسية، وفي آخر الأمر تيسر لي لقاء المراقب الأعلى واسمه «انبروزني»، وهو يعرف بالأدب العربي، فبعد أسئلة طويلة وأجوبة غير صادقة آخرها: من تعرف في مصر؟ فقلت: لا أعرف أحداً، ولكن الأستاذ سيدي أحمد سكيرج كتب لي توصية للسفير الفرنسي في القاهرة، وهو صديقه. فقال: أرني هذا الكتاب. فلما قرأه أخذ التلفون وكلم الموظف المكلف بإعطائي الجواز، وأخبره بموافقته، وقال لي: إنك ستجد في مصر فتناً كثيرة، فأنصح لك أن تشتغل بطلب العلم الذي تسافر من أجله، واهرب من السياسة ومخالطة الناس.

فشكرته على ذلك، وحصلت على الجواز، فسافرت إلى مصر وأقمت بها سنة، دعاني في أولها الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، الذي صار بعد ذلك إماماً وخطيباً في المسجد الحرام، وكان في ذلك الوقت إمام مسجد الأسطى أبي هاشم المهندس يصلي فيه ويلقي دروساً في الدعوة والإرشاد، وهذا مسجد خاص بالسلفيين، ويسمونهم وهابيين .. دعاني

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

لأنوب عنه في الصلاة وإلقاء الدروس لأن جماعة الفقهاء من الأئمة والمأذونين كانوا يحاربون الشيخ المذكور، فدعوه للمناظرة في أحد المساجد، وهيئوا له رجلاً يضربه بالعصا حين يتلقى الإشارة منهم، فبينما هو يناظرهم أشاروا إلى الرجل فانهال عليه ضرباً، ولم يقتصروا على ذلك بل كتبوا عريضة إلى محافظ الإسكندرية يقولون:

إن عبد الظاهر أبا السمح وهابي ضال مبتدع، يقول: إن العصا خير من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويمنع الاستغاثة به والتوسل ويطعن في المذاهب الأربعة ويعلم الناس مذهباً خامساً، ولما صعد المنبر ليخطب خطبة الجمعة في أحد المساجد أخذ العلمين المنصوبين على جانبي المنبر فألقاهما على الأرض إهانة لهذا الشعار الديني، يضاف إلى ذلك أنه أحدث فتنة عظيمة في رمل الإسكندرية، ففرق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والقريب وقريبه، فنرجو من سعادتكم أن تضعوا حداً لهذه الفتنة، بمنع هذا الرجل من الصلاة والتدريس في جميع المساجد، وتأمروا بسد مسجد الوهابية الذي أسسه بعض أتباعه.

وكنت إذ ذاك عند بعض المغاربة في مدينة الإسكندرية فبعث إلي رسولاً يقول: (بادر إلى الحضور بدون تأخير لأن المحافظ راجت عليه عريضة الجماعة بإغلاق مسجد أبي هاشم، وأمر الشيخ عبد الظاهر أن لا يصلي إماماً ولا يلقي درساً في أي مسجد).

فلما جئته قال لي: (أرجو أن تفتح المسجد وتصلي فيه الصلوات الخمس والجمعة وتلقي الدروس نيابة عني إلى أن يفرج الله)، ففتحت المسجد وصرت أصلي فيه والقي فيه الدروس. فاشتد ذلك على جماعة الفقهاء ، وكتبوا عريضة إلى الملك فؤاد يقولون مثل ما قالوا في العريضة التي رفعوها إلى المحافظ، وزادوا على ذلك أن سعادة محافظ الإسكندرية ثبت عنده كل ما نسبناه إلى هذا الرجل فمنعه من الصلاة والتدريس، وأمر بإغلاق مسجده. فدعا شخصاً مغربياً يسمى محمد تقي الهلالي، وهذا المغربي عنده حماية فرنسية ويتمتع بالامتيازات الأجنبية، ويدعو إلى مثل ما يدعو إليه أبو السمح تماماً من العقيدة الوهابية الفاسدة، فنرجو من جلالتكم أن تمنعوا هذا الرجل المغربي من إفساد عقائد المسلمين. وخاب الدساسون، فبعث الملك فؤاد العريضة إلى محافظ الإسكندرية فلما اطلع عليها المحافظ غضب غضباً شديداً لأمرين:

أحدهما: إنهم تخطوه واشتكوا إلى الملك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والثاني: إن منعي أنا من التدريس والصلاة يقضي إلى تدخل السفير الفرنسي بسبب الامتيازات الأجنبية التي كان العمل جارياً بها في مصر ذلك الزمان، وهو سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة.

فدعا الموقعين كلهم وأمر أن يدخلوا عليه واحداً بعد واحد فسأل الأول: أهذا توقيعك؟ فأجاب بنعم، فقال مرة أخرى: أتعترف أنه توقيعك. وأمر بحجزه في مكان آخر، ثم دعا الثاني والثالث والرابع إلى آخرهم ، وفعل مع كل واحد منهم مثل ما فعل مع الأول ، ثم جمعهم وقال موبخاً لهم:

لماذا تركتموني وكتبتم إلى الملك؟ فظننت أنكم صادقون، ومنعته وأمرت بإغلاق المسجد فما شأن المغربي؟ أهو وهابي ومفسد؟

فقالوا كلهم : إي والله يا سعادة المحافظ هذا المغربي مثله تماماً.

ثم قال لهم: زعمتم في عريضتكم التي أرسلتموها إلى الملك أنكم تخشون وقوع فتنة تسيل فيها الدماء عن بقي هذا المغربي يبث العقيدة الوهابية، فهل أنتم رجال أمن مسئولون عن المحافظة على الأمن ومكلفون بإخماد الفتن؟ بل أنتم سبب كل فتنة، وأي شيء يقع في رمل الإسكندرية من الفتن بسبب العقائد الدينية فأنتم وحدكم المسئولون عنه، وسأعاقبكم عليه عقاباً صارماً، وأنتم مستحقون للعقاب منذ الآن ولكني أمهلكم.

فرجعوا خائبين وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وكان الشيخ عبد الظاهر في أول الأمر يحضر صلاة الجمعة مؤتماً متخفياً. فلما مضى شهران ولم يحدث ما يكدر الصفو، صار يأتي علانية، ولما ظهر لنا أن أولئك الأعداء خمدت فتنهم وخضرت شوكتهم استأذنته أنا في الرجوع إلى القاهرة، فرجعت إليها ثم سافرت بعد ذلك إلى الصعيد وتقدم أني أقمت بضعة أشهر في الريمون أدعو على توحيد الله واتباع الكتاب والسنة، فاستجاب لدعوتي شيخ البلد المباشر للحكم وتبعه أهل البلد إلا قليلاً.

وأزيد هنا أنه بعد استجابة الشيخ يوسف، رحمه الله، التمس مني أن ألقي الدرس في الجامع الأعظم، وكان هو وسائر المساجد ممنوعاً عن السلفيين دخولها، فجمع الله الشمل بدعوتي. واستمررت ألقي دروس الوعظ في المسجد الأعظم ، فاغتاظ شيخ الطريقة والعمدة (المرفوت)، وبعثا إلى الأزهر يطلبان أستاذاً من العلماء الأقوياء في المناظرة، فجاء الأستاذ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الأزهري، وأقام في قصر العمدة، فأشاع هذا وخدمه أن هذا الأستاذ سيناظر الأستاذ المغربي ويفضحه ويقضي على دعوته، لأن المغربي لم يدرس في الأزهر وهو حاج جاهل اغتر به شيخ البلد ورفع شأنه.

قال ذلك ليحملني على مناظرته، فقلت لمن أخبرني: صدق العمدة .. أنا جاهل ولم أدرس في الأزهر، وأنا أنوي الحج إن يسره الله، ولكن المسائل التي دعوت الناس إليها من توحيد الله واتباع سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- أعرفها وعندي عليها براهين لو جاء الشيخ الأزهري وجميع أساتذته ما استطاعوا أن ينقضوا واحداً منها. فقال لي إخواننا السلفيون: لا تقل مثل هذا الكلام، فإن ذلك يطمعهم، وتقدم لمناظرة العالم الأزهري، فإن الأزهريين ليس عندهم علم بأدلة التوحيد واتباع الكتاب والسنة، ونحن مع قلة علمنا نناظرهم ونفحمهم، فقلت لهم: لكم رأيكم ولي رأيي، أنا لا أناظر أحداً إلا من هجم علي، فإنني أضطر حينئذ لمناظرته.

والقاعدة التي أسير عليها هي تجنب المناظرة بقدر الإمكان، ومن خالفني أقول له أنا حارث وأنت حارث وأرض الله واسعة فخذ بقعة من الأرض واحرثها وأنا أحرث هذه البقعة، والحاصلات بيد الله، أقصد بذلك إنني أدعو إلى ما أعتقد أنه الحق، وهؤلاء الناس أمامك فادعهم أنت أيضاً، فمن استجاب لي فهو لي ومن استجاب لك فهو لك، ولا حاجة بنا إلى خصام ولا نزاع.

فبلغ العمدة (المرفوت) وأستاذه الأزهري كلامي هذا، فزاد طمع العمدة أستاذه، وفسر ذلك بأني ضعيف، فعزم الأستاذ الأزهري، بإيعاز من العمدة (المرفوت) أن يهجم عليّ في الجامع الأعظم عند إلقائي درسي، فبعث إليه الشيخ يوسف -رحمه الله- رسولاً يقول له: نحن قد اخترنا هذا الأستاذ المغربي بعدما ألقينا عليه كل ما عندنا من مشكلات، وأجابنا أجوبة مقنعة، والمسجد لم يبن للمهاوشات والمنازعات. والله إن جئت وفتحت (بقك) بكلمة واحدة في الاعتراض على المغربي لآمرن خفرين يرافقانك إلى محطة القطار ويركبانك فيه. فوقع العمدة (المرفوت) وأستاذه الأزهري في حيص بيص وتحيرا في أمرهما.

وكنت ذات يوم من أيام رمضان مدعواً إلى الإفطار عند العمدة الحقيقي الذي هو الحاكم على البلد، وكان ملحداً، قال لي: «أنا لست معكم ولا معهم، ولكني أرى عقيدتكم

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أقرب إلى العقل من عقيدتهم». فلما فرغنا من الإفطار رجعت ماراً بقصر العمدة، لأنه في طريقي، فإذا بشيخ الطريقة يسلم عليّ ويصافحني ويقول: إن سعادة العمدة يدعوك لتشرب عنده كوباً من القهوة. فقلت: عندي درس بعد التراويح. فقال: خمس دقائق.

فدخلت القصر ثم رافقني إلى مقصورة وجدت فيها الأستاذ الأزهري جالساً وحده، فما استقر بي المجلس حتى بدأ الأستاذ في طرح الأسئلة.

وتصديت لجوابه، ووقعت المناظرة التي كانا يرغبان فيها. ولما سمع الناس بذلك تركوا صلاة التراويح. فحانت مني التفاتة إلى حديقة القصر فرأيتها كلها قلانس وعمائم، والناس جالسون على بساط النجم الذي كانت أرض الحديقة مفروشة به، فأخذ الأستاذ الأزهري في كل مناسبة يقول جهاراً: أشهد بالله إن هذا الرجل عالم وأنا راجع عما قلته فيه. أشهد بهذا وإن كنت أخالفه في بعض المسائل. فسقط في يد العمدة وشيخ الطريقة وخاب أملهما. فقال العمدة (المرفوت): أيها الأستاذ، أرجو أن تتركوا هذه المناظرة إلى وقت آخر، فإني لم أدع الأستاذ المغربي للمناظرة بل دعوته لشرب القهوة.

وهكذا انتهت المناظرة بانتصار أهل الحق ولله الحمد. وفي صباح تلك الليلة ناول العمدة (المرفوت) الأستاذ الأزهري ما تيسر من الدراهم ورده إلى الأزهر.

بين السنة والبدعة:

وإذ أرخيت العنان للقلم في هذا الموضوع فمن المستحسن أن أضيف إليه قصة مناسبة حدثني بها الشيخ يوسف رحمه الله، حين زرت (ريرمون) بعد رجوعي من الهند سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف .. أخبرني أنهم لما تمسكوا بالسنة وتركوا البدع كلها، شاع في الناس أن أهل ريرمون بدلوا الدين. فبلغ الأمر إلى وزارة الأوقاف في القاهرة أو في أسيوط، فجاء مفتش على أثر ذلك من وزارة الأوقاف، وتكلم مع الشيخ يوسف، وقال: إننا سمعنا أنكم بدلتم الدين وخالفتم جميع المساجد في ما يفعل يوم الجمعة وغيرها. فقال له: أنت عالم ونحن جهال، احضر معنا صلاة الجمعة، فكل ما رأيته مخالفاً للسنة تأمرنا بتركه فنتركه، وكل ما رأيته ناقصاً من السنة تأمرنا بفعله فنفعله. قال لي: يا شيخ يوسف، السنة على الرأس والعين، ولكن لا يخفى عليك أن الناس قد أحدثوا بدعاً مستحسنة من أزمنة متطاولة، والبدعة تعتريها الأحكام الخمسة، تكون واجبة ومستحبة ومكروهة ومحرمة أو مباحة كما صرح به غير

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

واحد من أهل العلم، ولا نستطيع أن نبطل هذه البدع وقد ألفها الناس وعملوا بها وأقرها العلماء بالسكوت والاستحسان، قال: فقلت له: تريد منا إذن أن نترك السنة ونفعل البدعة ! لا والله لا يكون ذلك أبداً. فقال المفتش: ثم لا يخفى عليك أن هذا مسجد الأوقاف هي التي بنته وهي التي تنفق عليه. قال فقلت له: نحن قادرون نبني مسجداً أحسن منه في سبعة أيام ونخلي لك الإمام والمؤذن يصليان فيه وحدهما. فقال المفتش: أو نصنع شيئاً آخر يوافق بين رأيي ورأيكم. فقال: ما هو؟ فقال: أصلي معكم الجمعة وتفعلون البدع التي كنتم تفعلونها من قبل، حتى أرجع أنا إلى مقر عملي وأخبر بأن ما شاع عنكم كذب، وبعد ذهابي ترجعون إلى ما كنتم عليه من التمسك بالسنة وترك البدعة. قال الشيخ يوسف: فقلت له لك ذلك. فقال: فصنعنا كما أمر، ثم رجعنا إلى السنة.

أفكاره

التزم الشيخ الهلالي بالمنهج السلفي وصار من دعاته النشيطين، وكان متفتحاً غير متزمت ومجتهداً غير مقلد، وقد أكسبته الأسفار الكثيرة إلى البلاد العربية والهند وسويسرا وألمانيا، ولقاؤه العلماء في العالم العربي والإسلامي، صفات العالم العامل والداعية الواعي، والمصلح الحكيم والمجاهد الصادق.

وكان منهجه في التعليم والتربية، الحرص على غرس التوحيد، والالتزام بالأركان والعمل بالأصول، والبعد عن مواطن الخلاف في الفروع، والاستفادة مما لدى الغرب من تقدم علمي، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

الهلالي الشاعر

والدكتور الهلالي له قصائد كثيرة في مناسبات عديدة ولكنها تحتاج إلى جمع وتوثيق للزمان والمكان والمناسبة التي قيلت فيها ونرجو أن يضطلع بذلك تلامذته وأحبابه في المغرب، أمثال الأخ الدكتور عبد السلام الهراس وإخوانه.

مواقف ناصعة

قال الشيخ الهلالي: كنت إمام المسجد الذي بناه الحاج مصطفى الإبراهيم في منطقة الدورة بالبصرة، وفي مرة تأخر الحاج مصطفى عن موعد الصلاة، فأقيمت وصليت بالناس دون انتظاره، وبعد الصلاة عاتبني كيف تقام الصلاة قبل حضوره، فأجبته أن وقت المغرب

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قصير، ولا يصح التأخير، فقال الحاج مصطفى الإبراهيم: ألا تعلم يا شيخ تقي الدين أنني أملك نصف منطقة الدورة؟ فأجبته وأنا أملك النصف الآخر، وأنا إمام المسجد!! وتأزم الموقف وغادرت المنطقة ولم أعد .

إن أستاذنا الشيخ الهلالي علم من أعلام الإسلام، ومجاهد من المجاهدين العظام، كانت له آثار في كل مكان زاره أو استقر فيه، وله من الطلاب والمحبين آلاف مؤلفة في أنحاء العالم الإسلامي، ولقد تزوج حين كان في ألمانيا بمسلمة ألمانية وله منها ولد، كما تزوج في المغرب من مغربية وله منها أولاد بالإضافة لزوجته الأولى أم شكيب التي لها منه ولد وبنت.

مؤلفاته

يقول الشيخ –حفظه الله–: في السنة التي رأيت فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– وأمرني بطلب العلم، رأيت كأن شجرة نبتت في ظهر يدي اليمنى وامتدت أغصانها إلى جميع أنحاء الدنيا بحيث لا أرى أطرافها، فظننت أن تأويل هذه الرؤيا أني أتعلم العلم وأؤلف كتاباً ينتشر في جميع أنحاء العالم. وقد أخطأت في هذا التأويل فأن الذي انتشر في أنحاء العالم هي المقالات التي نشرتها في الصحف والمجلات ولا أحصيها لكثرتها في الهند والبلاد العربية مشرقها ومغربها، وفي أوروبة والولايات المتحدة. ومع ذلك ألفت تآليف صغاراً، أذكر منها هنا ما يحضرني:

- الزند الواري والبدر الساري في شرح صحيح البخاري [المجلد الأول فقط].
- الإلهام والإنعام في تفسير الأنعام.
- مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل.
- الهدية الهادية للطائفة التجانية.
- القاضي العدل في حكم البناء على القبور.
- العلم المأثور والعلم المشهور واللواء المنشور في بدع القبور.
- آل البيت ما لهم وما عليهم.
- حاشية على كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.
- حاشية على كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب.
- الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

- دواء الشاكين وقامع المشككين في الرد على الملحدين.
- البراهين الإنجيلية على أن عيسى داخل في العبودية وبريء من الألوهية.
- فكاك الأسير العاني المكبول بالكبل التيجاني.
- فضل الكبير المتعالي (ديوان شعر).
- أسماء الله الحسنى (قصيدة).
- الصبح السافر في حكم صلاة المسافر.
- العقود الدرية في منع تحديد الذرية.
- الثقافة التي نحتاج إليها (مقال).
- تعليم الإناث و تربيتهن (مقال).
- ما وقع في القرآن بغير لغة العرب (مقال).
- أخلاق الشباب المسلم (مقال).
- من وحي الأندلس (قصيدة).

كما أن له محاضرات ودروساً وندوات وأحاديث ومقالات وبحوث لا يمكن الإحاطة بها في هذا المختصر، لأنها في موضوعات عدة، وبلدان متفرقة، وأزمان مختلفة.

والظاهر أن هذه الكتب جميعاً قد خرجت إلى حيز النشر، وإن كنا لم نطلع على معظمها. ويلاحظ من عناوينها أمران: تعدد جوانب الفكر واتساعها، فهي تتناول أشتات البحوث من شرعية وأدبية واجتماعية ولغوية، وإن كان الغالب عليها هو الطابع الديني. ولا غرو فالشيخ — رحمه الله – من رجال الدعوة المعروفين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

أما ثاني الأمرين فهو السجع الغالب على معظم هذه العناوين، وهو ثمرة طبيعية للطابع الأدبي الذي يؤثره الشيخ، إذ هو من بقايا المدرسة المحافظة، شديد التمسك بها حتى التعصب.

رأيه في مستقبل الجيل

«الذي يظهر لي أن الشباب في المغرب وخصوصاً المتعلمين في الجامعة دائبون على التباعد من الإسلام، وبعضهم لا يكتفي بالتباعد بل يعادي الإسلام. وقد دعوت إلى الإسلام بوجهه الأول الذي لم يبدل ولم تشوهه البدع المحدثة، فاستجاب لي بحمد الله خلق

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كثير وفيهم شباب كثير من متعلمين وغير متعلمين، ولكن هؤلاء إذا قيسوا بغيرهم كنقطة من بحر أو كشعرة بيضاء من حيوان أسود.

ولا أراهم إلا سائرين في طريق الكفر سيراً حثيثاً، إلا إذا يسر الله انتشار الدعوة السلفية المحمدية الحنفية حتى تعم المغرب كله، وما ذلك على الله بعزيز، والبلدان الأخرى ليست أحسن من بلادنا بل قد تكون أقبح، لأن المغاربة لم يطرأ عليهم التباعد عن الإسلام إلا منذ تسع وخمسين سنة، أي منذ دخول الفرنسيين مستعبدين، ولا يزال المغاربة أكثر قبولاً للدعوة من غيرهم لو وجدوا دعاة صالحين، على أني وبحمد الله نجحت أيضاً في العراق، ولا تزال الدعوة مستمرة يقوم بها زملائي.

إلا أني وجدت من الصعوبة في العراق ما لم أجد مثله في المغرب لأن الداء في العراق قديم، وبلغ الأمر بالآباء أنهم كانوا يمنعون أبناءهم من الصلاة معي وحضور دروسي في المسجد ويغرونهم بالدراهم والسينما، فيقبضون دراهمهم ويأتون إلى جامع الدهام لحضور الصلاة ودروس الوعظ، ولم أر في المغرب أحداً من الآباء يعادي الإسلام بهذا الشكل».

واجب العلماء نحو الجيل

وعن مسئولية أهل العلم بإزاء هذا الجيل يقول الشيخ الهلالي:

«إذا وجد جماعة من العلماء المخلصين المستعدين لحمل ما عسى أن يصيبهم من الأذى كالضرب والسجن والنفي زيادة على السب والشتم وعداوة الناس –وقد لا يصيبهم شيء من ذلك – فإنهم يستطيعون أن يجذبوا كثيراً من الناس إلى الإسلام الصحيح، ولا تستطيع الدعوات المعادية للإسلام أن تقف في طريقهم، ولا أن تعوق تقدمهم إلى بلوغ غايتهم المنشودة».

ثناء العلماء عليه

- قال الشيخ ابن باز، رحمه الله، في مفكرته (تحفة الإخوان)، الذي سجله بعدما بلغه خبر وفاة الشيخ الهلالي، كتب:

«تُوفي الشيخ العلامة الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الحسنيّ، في الدار البيضاء بالمغرب، في يوم الثلاثاء الموافق ٢٧ شوال، عام ١٤٠٧هـ فرحمه الله، رحمةً واسعةً وضاعف له الحسنات.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكان مولده في محرم من عام (١٣١١هـ) أخبرني بذلك رحمه الله، مشافهة في المدينة، وبذلك يكون قد عاش (٩٧) سبعة وتسعين عاماً، إلا شهرين وأياماً.

وكان عالماً فاضلاً، باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله سبحانه، أينما كان، وقد طوّف في كثير من البلاد، وقام بالدعوة إلى الله سبحانه: في أوروبا مدّة من الزمن، وفي الهند وفي الجزيرة العربية.

ودرّس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وله مؤلفات منها (الهدية الهادية للفرقة التجانيّة)، وكان أول حياته تجانياً، ثم خلّصه الله منها، ورد على أهلها، وكشف عوارها، ومن مؤلفاته الأخيرة: (سبيل الرشاد).

وقد خلَّف ابنين وبنتين أو ثلاثاً، وفقهم الله وأصلح حالهم، وقد صلَّى عليه جمٌّ غفيرٌ، ودُفِنَ في مقبرة الدار البيضاء، جمعنا الله به في دار الكرامة، وخلفه على المسلمين بأحسن الخلف». أ.هـ

- قال الشيخ حماد الأنصاري رحمه الله:

«في الحقيقة لم ألتق مع رجل يحوي علمًا جمًّا في فنون عديدة مثل الدكتور الهلالي، وقد مضت علي الآن خمس وأربعون سنة لم أر مثله».

«وكان يعرف من اللغات: اليهودية، والألمانية، والإنجليزية، والأسبانية، بجانب العربية بحيث لو كان في زمن الأصمعي لسلّم له بأنه إمام في العربية».

«ثم عاش في العراق مدة بعد خروجه من المدينة، وتزوج هناك، وكان شاعرًا يمتاز بميزات نادرة».

«... وهو شيخي استفدت منه كثيرًا، وكان سلفي العقيدة؛ لو قرأت كتابه في التوحيد لعلمت أنه لا يعرف التوحيد الذي في القرآن مثله».

- يقول الحاج أحمد هارون التطواني وهو من تلاميذ الشيخ:

«لم يكن شيخنا ليضيع وقتا مهما كان، يقرأ ويكتب الأشعار وهو في السيارة، يقضي يومه من الصباح إلى المساء في علم وتعليم وذكر وتأليف».

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

«يتميز أستاذنا باتصاله بالشعب، فأي شخص صغير أو كبير يستطيع أن يوقفه في الشارع ويتحدث معه، كما كان بيته مفتوحا دائما، فتجد الأفواج تأتي إلى منزله وهو لا يمل من الترحاب والإكرام ، وكان يقوم بنفسه قبيل صلاة الصبح يسخن لنا الماء لنتوضأ به».

- قال الشيخ مشهور آل سلمان:

«لم أسمع ولم أر مثله إلا شيخنا (يعني الشيخ الألباني رحمه الله) ، وبينه وبين شيخنا الإمام الألباني مشابهات كثيرة جدا، وكان عالما بالتوقيت وحريصا على التوقيت وكتب كتابا في أصول التوقيت وبيان أن أوقات الصلوات خطأ، وكان شيخنا يمدحه في هذا الباب، و التقى به ومدحه».

- قال الشيخ سليم بن عيد الهلالي:

«يعد العلامة تقي الدين الهلالي بحق مجدد التوحيد في هذا القرن».

- قال الشيخ علي بن حسن الحلبي:

«...وإن النهضة السلفية التي وجدت في بلاد المغرب لم تكن لتكون موجودة إلا بتوفيق الله تعالى للشيخ الهلالي وامتداد مدرسته في تلاميذه..».

- قال الشيخ بن عسو:

«...وقد مكث الشيخ في آخر حياته بالمغرب متنقلا يدعو إلى الله ومقامه كان بمدينة مكناس، لكن أهل الأهواء والبدع لا يتركون للشيخ فرصة يدعو بها إلى الله...».

- قال الشيخ إبراهيم برياز (من تلاميذ الشيخ):

«...والدكتور تقي الدين الهلالي رحمه الله جاهد في الله حق جهاده تبعا لأصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ...»

- قال الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله:

«الفاضل فاضل حيث كان، كما أنّ الشمس شمس شرقت أم غربت. والأستاذ العلامّة محمّد تقي الدين الهلالي –صاحب الفصول الممتعة والبحوث الجليلة في صحيفة الفتح– من أفاضلنا الذين أجمع على الاعتراف بفضلهم الشرق والغرب، والعرب والعجم، والمسلمون وغير المسلمين.فهو في الحجاز نار على علم شهرة وفضلا. وفي الهند تبوأ منصة التدريس في أرقى جامعاتها وفي العراق معروف بدأبه على خدمة هذه الأمّة وحرصه على خيرها، وهو

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الآن في ألمانيا موضع الحرمة من أركان جامعة بون التي يتولى التدريس فيها.. فالأستاذ الهلالي رجل علمي واسع النظر واقف على أحوال الشرق والغرب لذلك كان ما يقرره في بحوثه من حقائق يأتي ناضجا مفيدا ممتعا، ومن حسن الحظ أنّ قراءنا يقدرون رجالهم كما نقدرهم وكل ما يكتبه الأستاذ الهلالي وأضرابه في الفتح يأتي بالفائدة المرجوة منه والحمد لله».

هل كان العلامة تقي الدين الهلالي متأثرا بالغرب؟ [٣]

ضمني وإخوة أجلاء مجلس مبارك تجاذبنا فيه أطراف الحديث، فجرى ذكر مجدد الدعوة السلفية في المغرب وناصرها، ومحيي معالم السنة بعد اندثارها، وقامع البدع والخرافات وقاهرها، لسان أهل السنة وخطيبهم، وكاتب أصحاب الحديث وشاعرهم، الإمام العلامة الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي تغمده الله بواسع رحمته

فأخبرني بعض الحاضرين أن شخصا من المغرب يشيع بين المشايخ وطلبة العلم، أن العلامة الهلالي – رحمه الله – كان معجبا بالمدنية الغربية وأصحابها، ومتأثرا بالحضارة الأوروبية وأفكارها، فتملكني العجب، لا من سوء الفرية، وقبح البهتان، فمثل الشيخ العلامة في جهاده، وإصلاحه، ودعوته، وذبه عن عقيدة السلف وأهلها، وذوده عن حياض السنة وآلها، وانبرائه لصد ما يخالف شرع الله تعالى بلسان فصاحة وبيانا، وقلم ابن قتيبة سلاسة وبرهانا، وشعر حسان جزالة وإتقانا عرضة لأن ينفس المبتدعون والخرافيون والصوفيون والقبوريون عن غيظهم بالطعن فيه بعد موته والحي قد يغلب ألف ميت، أما في حياته فقد أسكت والله أصواتهم، وألجم ألسنتهم، وكمم أفواههم، وقلم أظفار أقلامهم، لكن سبب عجبي أن مختلق الإفك، ومشيع الكذب من المنتسبين إلى منهج أهل السنة والجماعة الذي أحياه الشيخ الهلالي، وذاد عنه قرابة ثمانين عاما في مشارق الأرض ومغاربها، ويبلغ العجب منتهاه، والاستغراب مداه، أن الذي تولى كبر هذه الفرية، وباء بإثم نشرها، ممن طوق العلامة الهلالي أعناقهم بمعروفه، وغمرهم بإحسانه، فهو الذي أرشده إلى طريق العلم، ويسر له سبل المعرفة، فكان كما قيل: (أحشك وتروثني)،

أعلمه الرماية كل يوم * * * فلما اشتد ساعده رماني

---

[٣] الشيخ أحمد بن محمد الحمزاوي وهو من تلاميذ الشيخ تقي الدين الهلالي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وكم علمته نظم القوافي * * * فلما قال قافية هجاني

مع أن النفوس السوية، والفطر السليمة تأبى أن تقابل المعروف إلا بالمكافأة والشكران، وأن تجزي الإحسان إلا بالإحسان، قال تعالى: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } [الرحمن:٦٠]، وروى الترمذي وصححه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**» وفي لفظ لأحمد وأبي داود وابن حبان: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**».

وقد استند هذا الرجل في دعواه وافتئاته على أمرين:

أولهما: أن الشيخ العلامة الهلالي درس في أوروبا، ونال شهادته منها.

الثاني: أنه - رحمه الله - كان يذكر في دروسه، وكتاباته ما رآه من تمسك بعض الأوروبيين بجملة من محمود الصفات، وتحليهم ببعض الأخلاق الحسنة كترك الفضول، وحسن الإنصات للمناقش، والمحافظة على المواعيد، والحرص على عدم إضاعة الأوقات، والجد في العلوم الدنيوية، مما أوصلهم إلى ما هم فيه من التقدم المادي الدنيوي، حتى أصبح المسلمون يحتاجون إلى صناعاتهم من الإبرة إلى الطائرة.

ودونك أخي الكريم حقيقة الأمر وجلية المسألة، لتعلم ما في كلام الرجل من التدليس والتلبيس:

أولاً: أن الشيخ -رحمه الله- بين بنفسه سبب سفره إلى أوروبا، وعلة سعيه في الحصول على الشهادة، فقال: «وإنما سافرت إلى أوروبا بعد سن الأربعين، للحصول على شهادة جامعية تمكنني من الدخول إلى الجامعات في البلاد الآسيوية والإفريقية، لنشر الدعوة بين المعلمين والمتعلمين، لأن الآسيويين والأفريقيين قد غلوا في تعظيم الشهادات العالية، وأصحابها، حتى صارت عندهم كل شيء، فمن حصل عليها صار حديثه مقبولا، وصار في نظرهم عالما، ولو كان أجهل من حمار أهله» [صيانة العرض ص ٣٣]

وهذا الكلام من وضوح المغزى ونبل المقصد بحيث لا يحتاج إلى تعليق، وقد صرح في موضع آخر بأن الإقامة في أوروبا إنما تكون للضرورة، فقد كتب الأستاذ عبد اللطيف أبو السمح فكان مما قاله: (واسأله - تعالى -أن يجمعنا بكم في أوروبا كما جمعنا في إفريقيا ثم آسيا)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فأجابه العلامة الهلالي من قلب أوروبا قائلا:

«وما رجوته من الاجتماع هو بغيتي وسؤالي إلا أنني أخالفك في موضعه فأتمنى أن يكون في مصر في خير وسلامة فهي أحب إلي من أوروبا، ولا أظن أن العاقل يستحب الإقامة في أوروبا إلا للضرورة وبقدرها» إلى أن قال:

«ولا أنكر أن هنا في أوروبة علوما نافعة لأهل الشرق، ولا أجحد أن بعض من يرحل إلى أوروبة من الطلبة فيهم شهامة ونجابة، والذي أنكره هو أنه ليس كل الطلبة الآتين هذه الديار لطلب العلم هم في الحقيقة طلاب علم، وأنهم يرجعون إلى الشرق بما ينفع أوطانهم، أو على الأقل لا يضرها، ومنذ جئت إلى أوروبة، وخبرت أحوال طلبة العلم أسفت أسفا شديدا، إذ لم يكن لي حول ولا قوة لإصلاح الحال، فإن قلت: وماذا تصنع لو كان لك حول وقوة؟ فالجواب: لو كان لي مثلا مال فاضل وهو أحد أنواع الحلول لما اقتصرت في النصيحة على تصديع القراء بمثل هذه المقالات الفارغة، بل أجبت بالعمل، وذلك أني أرجع إلى الشرق، وألقي بصري على طلبة العلم، ومتى رأيت منهم من جزمت لي فراستي وأظنها قلما تخطئ في هذا الباب دعوته واختبرته، وعرفت العلم الذي هو متأهل له، فقلت له: تهيأ للسفر وجهزته وبعثته، فإذا أتم دراسته ورجع يعمل عملا حرا أو حكوميا مضاداً أشد المضادة لما يعمل المزورون الملبسون، فإذا رأى الشعب والحكومة الفرق بينه وبين أولئك المحتالين، عرفوا الحقيقة، واحتاطوا في إرسال الطلبة، وتدرجوا في إصلاح هذا الباب إلى أن يصلوا إلى الصواب، وهو إرسال الطلبة حسبما تقتضيه حاجة البلاد، لا حسب شهوة المرسلين أو المرسلين». [انظر مجلة الفتح العدد ٨١١ ص ١٣]

فتأمل أخي الكريم هذه الجواهر واللآلىء بعين الإنصاف، وزنها بميزان العقل، تجد أن الشيخ العلامة قد طبق المفصل، وأصاب كبد الحقيقة، وأن ذلك لا يصدر إلا من أصيل الرأي، ثاقب النظر، سديد الرأي لا عن مقلد للغرب متأثر بهم، كما يزعم ذلك الرجل وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فما على الحكومات العربية والإسلامية إلا أن تبحث في سبل تطبيق هذه النظرية العلمية العظيمة، وآلات تحقيقها.

فهذا الحق ليس به خفاء * * * فدع عني بنيات الطريق

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ويقول – رحمه الله – وهو في ألمانيا: (وأن من أهم الأمور التي دعتني للإقامة في أوروبة إبطال دعاوى المتفرنجين، وفضح أحوالهم، وهتك أستارهم، وإتيان بيوتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت من القواعد: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ }[حرر في بن جرمانية: ٢٥ رجب ١٣٥٧هـ]

لم أعرف عن أحد من الشدة والغلظة والإنكار على المتفرنجين والعلمانيين مثل ما عرفته عن الشيخ الهلالي – رحمه الله – وفي قوله السابق ما ينبئ عن شيء قليل من ذلك، فهل يقول بعد ذلك عاقل يعي ما يقول: إن الشيخ متأثر بالغربيين؟؟

ثانياً: ما شغب به صاحبنا من كون الشيخ العلامة كان يمثل ببعض الأوروبيين في تمسكهم بجملة من محمود الأخلاق، كما أسلفنا، فهذا الرجل إما أن يكون قد أتى من فهم سقيم وفكر مريض فالتبس عليه الأمر كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً * * * وآفته من الفهم السقيم

وهذا أمر بعيد الاحتمال، وإما أن يكون قد بلغ به الحقد إلى حد محاولة إخفاء شمس الحقيقة، واختلاق الأكاذيب، كما قيل:

إن يعلموا الخير أخفوه وإن علموا * * * شرا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

وإلا فإن كل من جالس الشيخ العلامة – رحمه الله – أو أخذ عنه، أو استمع إليه، أو قرأ له يعلم يقينا أن الشيخ كان من أشد الناس إنكارا على من يخل بمكارم الأخلاق، أو يتهاون في التمسك بآداب الإسلام، وكان يقول: «إن من أسباب تخلف المسلمين تركهم لتلك الأخلاق والآداب، ويدلل على ذلك بأن الأوروبيين والغربيين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من العلوم الدنيوية، إلا بأخذهم بجزء مما جاء به الإسلام، وحث عليه من الجد في العمل، وعدم إضاعة الوقت، وغير ذلك».

قال – رحمه الله – في مقال له بعنوان: (كيف كانت عقولهم) [نشر في الفتح العدد ٢٨١ ص٩] :

(لئن خسر الأوروبيون في غزوات فلسطين لقد ربحوا ربحا عظيما، ونالوا ما هو خير لهم في ذلك الزمان من فتح مصر والشام والعراق، كانت صفقتهم رابحة وصفقتنا خاسرة، ذلك بأنه وقعت بيننا وبينهم مبادلة علمية خلقية، إذ أخذوا منا جانبا من العلم والأخلاق التي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

كان بها سعودنا وصعودنا، وأخذنا منهم قسطا وافرا من الجهل والأخلاق التي كانت سبب شقائهم وهبوطهم»

ويقول في آخر المقال:

«فمن أين يا ترى جاءتنا هذه العقيدة، عقيدة المحاربة بالقوى الخفية؟ لا شك أنها بضاعة أوروبية من بضائع أولئك القسيسين الذين قدموا الصبيان الفرنسيين لحتفهم، وكيف تبدلت عقول الأوروبيين، وانتقلت من تلك الدركة السفلى، فارتفعت إلى ما هي عليه الآن من معرفة سنن الكون، وربط الأسباب بالمسببات ليس إلا من تلك الحروب الصليبية التي أفهمت الأوروبيين جهلهم وانحطاطهم، فبادروا إلى درس العلوم المحمدية، والحضارة العربية، وثابروا على ذلك إلى أن بلغوا ما بلغوا، ومن سلك الجدد أمن العثار»

فانظر رحمك الله إلى عظيم قدر الأخلاق، وكبير منزلة العلوم المحمدية عند العلامة المفكر – رحمه الله – فقد جعل ما ظفر به الصليبيون من علوم المسلمين وأخلاقهم نصرا حقيقيا وإن انهزموا في ميادين الحرب؛ لأنه كان السبب في نهضتهم وقوتهم المادية، كما جعل ما تلقفه المسلمون من جهل الأوروبيين ومساوئ أخلاقهم انهزاما حقيقيا وإن انتصروا في المعارك لأنه كان سبب انحطاطهم وتخلفهم.

وقوله – رحمه الله –: «وربط الأسباب بالمسببات ليس إلا» بيان لما أخذه الأوروبيون من الأخذ بالأسباب، أما التوكل على الله مسبب الأسباب، فهذا جانب عقدي لم يأخذه الأوروبيون، فلم يذكره، وذلك بيّن واضح، ثم بعد هذا، أيقال في حق مثل هذا الإمام العلامة، وهو الداعية الصادع بالحق المعلن أن ما أصاب المسلمين من ضعف ووهن، سببه ترك تعاليم دينهم وأخلاق شريعتهم إلى خزعبلات الأوروبيين وخرافاتهم: إنه متأثر بالفكر الغربي والحضارة الأوروبية؟! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم!!

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره * * * إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وقد وقفتك أخي المنصف على نزر ضئيل من فكر الشيخ الإمام في تنظير التعامل مع الغرب، وانبلج الصبح لذي عينين، وعسى الله أن ييسر لنا إتمام هذا الموضوع وغيره بأوسع من هذا .

الرحيل

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

في يوم الإثنين ٢٥ شوال (١٤٠٧هـ) الموافق لـ ٢٢ يونيو (١٩٨٧م) أصيبت الأمة الإسلامية بفاجعة ومصيبة يصعب على القلم وصفها ، وهي مصيبة موت الشيخ تقي الدين الهلالي رحمه الله وذلك بمنزله في مدينة الدار البيضاء بالمغرب. وقد شيع جنازته جمع غفير من الناس يتقدمهم علماء ومثقفون وسياسيون.

و هذه هي خاتمة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي:

تحدث رجل ممن جالس الشيخ محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله وزاره الشيخ في بيته وهو السيد عبد الإله الشرقاوي الرباطي (و هو مقيم بالمغرب حاليا) أن ابن عم الشيخ المعروف في المغرب بـ «الهلالي» حدثه بما يلي:

كان الشيخ محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله في أواخر أيام حياته مريضا طريح الفراش وكان لا يستطيع أن يتوضأ فكان يتيمم؛ وكان رحمه الله لا يرى التيمم بالحجر بل يتيمم بالتراب إذ كان له بمنزله كيس يملؤه بالتراب لذلك الغرض، وإذا قيل له تيمم بالحجر قال لا هذا فعل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (يعني التيمم بالتراب). وذات يوم قال لأهل بيته إيتوني بوَضوء فقالوا له أنت لا تستطيع التوضؤ فتيمم، لكنه أصر على الوضوء فأتوه بوضوء.فتوضأ رحمه الله وصلى ركعتين واستلقى على الفراش وقال لمن كان ببيته من يجيد منكم قراءة القرآن، فقرأ عليه أحدهم سورة ياسين وهو ينصت حتى أتمها؛ثم قال له الشيخ رحمه الله أعد القراءة من قوله تعالى:

{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} [يس:٧٧]

فأعاد القارئ القراءة إلى أن انتهى من قوله تعالى:

{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} [يس:٧٨]

فرفع الشيخ إصبعه إلى السماء (يعني وكأنه يقول: الله هو الذي يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) ففاضت روحه من حينها، فرحمه الله رحمة واسعة و رزقنا و إياكم حسن الخاتمة. آمين.

من مصادر الترجمة

- موقع الشيخ على الإنترنت
- الشيخ العلامة محمد تقي الدين الهلالي الداعية مشهور حسن سلمان
- محمد المجذوب في كتابه القيم «علماء ومفكرون عرفتهم»

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com